المشروع القومى للترجمة

ماكس فريش

بيدرمن

ومشعلو الحرائق

مسرحية

ترجمة وتقديم :

دكتور مصطفى ماهر

Bibliotheca Alexandrina
0050231

المجلس الأعلى للثقافة
١٩٩٧

بيدرمن
ومشعلو الحرائق

المشروع القومى للترجمة

ماكس فريش

بيدرمن

ومشعلو الحرائق

مسرحية

ترجمة وتقديم :

دكتور مصطفى ماهر

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٧

هذه ترجمة كاملة لمسرحية

Biedermann und die Brandstifter

Max Frisch

مقدمــــة

أولا:

بـدأ اهتمامى بنقل أعمال مختارة من الأدب السويسرى المعاصر حـول عام ١٩٦٠ وتركز حول أديبين خاصة هما فريدريش دورينمات Friedrich Durrenmatt ومـاكس فـريش Max Frisch رأيت ، كـمـا رأى كـثرة النقـاد وعلماء الأدب أنهمـا يمثلان الأدب السويسرى الألمانى المعاصـر ، ويمثـلان جانباً هاماً من الأدب الألمانـى منذ الحرب العالمية الثانية ، ويقدمان إلى الأدب الإنسانى العديد من الأعمال المتميزة . وينبغى أن ننوه هنا بالدور الكبير الذى لعبه فى التعريف بهما ، وفى ارتياد مجالات واسعة من التفاعل الثقافى مع أدب العالم رواد من أمثال أ.د . عبد الرحمن بدوى ، الذى فتح أمام طلاب الثقافة الرفيعة طوال نصف قرن أو يزيد أفقاً بعد أفق ، وفضله أكبر من أن نوفيه حقه

بكلمات عابرة ، ولعل المؤسسة الثقافية الرسمية فى وطننا تذكر هذا الرجل فتقدم إليه باقة الزهور التى تليق به .

أياً كان الأمر فقد نقلتُ فى مطلع الستينيات « **زيارة السيدة العجوز** » لفريدريش دورينمات إلى العربية ، وظهرت الترجمة مطبوعة فى عام ١٩٦٢ ، ثم عُرضت على مسرح دار الأوبرا فى إخراج رائع من إبداع المخرج العبقرى سمير العصفورى وبمشاركة من باقة من نجوم المسرح العظام من أمثال زوزو نبيل وعبد الله غيث وحسن البارودى وصلاح منصور ، ودخلت المسرحية بمرور الوقت معين الثقافة واندمجت فى الوجدان الفنى فى عالمنا الثقافى وبخاصة بعد أن شد فيلم « **الزيارة** » طبقات واسعة من الجمهور من مشاهدى السينما ، واقتبس منها الكتاب للمسرح والسينما وغيرهما ما شاء لهم الاقتباس وظهرت ترجمات أخرى للمسرحية نفسها ، وترجمات لمسرحيات أخرى بأقلام منوعة لكل منها أسلوبه ومنهاجه ، وكان ما عشناه مع هذه الترجمات موجة من موجات الترجمة التى تحدثت عنها فى مقالى عن الترجمة فى عام ١٩٧٣ ولم يقتصر استقبال دورينمات فى مصر على هذه الترجمات وما تصدرت به من مقدمات أو دراسات ، وعلى الاقتباسات ، بل كان طلاب الأقسام المختصة باللغة والأدب الألمانى فى الجامعات يطالعون أعمالاً لدورينمات فى أصلها الألمانى ويتناولونها بالدرس ، كذلك كانت فرق المسرح المعروفة وفرق الهواة تقدم أعمال دورينمات مترجمة ، وكانت بعض المدارس وبخاصة الألمانية تعرض هذه أو تلك المسرحية فى نصها الألمانى ، ولا نغفلن عن دور أكاديمية الفنون ومعهد المسرح بها خاصة وكان الباحثون على مستوى الدراسات العليا وبحوث

الترقى يكتبون عنها ، مثلما فعل الدكتور محمد عبد السلام يوسف فى رسالتى الدكتوراه والماچستير تحت إشرافى .

ثم قدمتُ فى عام ١٩٧٠ ترجمة لعمل ثان من أعمال دورينمات ، هــو **«النيزك»** شرفنى بمراجعته صديقى الأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوى ، ولم يتح لهذه المسرحية من الانتشار سواء فى العالم أو لدينا ما أتيح لزيارة السيدة العجوز ، ولكن اهتمامنا بدورينمات كان كبيراً ، ما فى ذلك شك ، وشارك فيه مترجمون ونقاد عظام ، على رأسهم الأستاذ أنيس منصور الذى ترجم العديد من أعمال دورينمات ، وأتاح لها الخروج على خشبة المسرح ، ثم زارنا فريدريش دورينمات فى مصر فى ديسمبر من عام ١٩٨٥ بدعوة من الدكتور ممدوح البلتاجى ، آنذاك رئيس هيئة الاستعلامات ، ونشرتُ بهذه المناسبة كتاباً تسجيلياً يضم دراسات ونصوصاً مترجمة ، **« اللقاء .... دورينمات فى مصر »** (١٩٨٨) وعقدتُ فى صالونى الأدبى جلسة طويلة مع دورينمات حضرها يحيى حقى وصلاح جاهين وجلال العشرى ، وأ.د . عماد فضلى و أ.د عبد الرحيم عبد الله وغيرهم من الأدباء والنقاد والمفكرين ، وأحدث هذا اللقاء الشخصى أيضاً أثره .

وهذا الذى حدث مع دورينمات تكرر بالنسبة إلى ماكس فريش مع بعض الاختلافات ، فهو لم يلق من سعة الانتشار فى مصر ما لقيه دورينمات ، ولكن المهتمين بالثقافة الرفيعة نقلوا باقة مختارة من أعماله أذكر منها **«سور الصين»** من ترجمة سمير التندواى ومراجعة عبد الرحمن بدوى ، ونشرتُ له فى عام ١٩٧٤ ترجمة لمسرحية **« قصة حياة »** شرفنى بمراجعتها صديقى أ . د .

محمود فهمي حجازى ، وزارنا فريش فى مصر فى عام ١٩٨٥ ، ولا زلت أذكر ما دار بينى وبينه من حديث عن مشكلة الهوية الثقافية التى اتخذت فى زماننا الحاضر صورة ديناميكية ، وأصبح الإنسان يبحث بحثاً مستمراً لا ينقطع عن هويته هذه المتغيرة ليكون على بينة منها على كل حال . وكان أحد الصحفيين الكبار حاضراً فنشر فى صحيفته فى اليوم التالى نقداً عنيفاً لرأيى .

وإذا كنت أخرج اليوم هذه الترجمة من أوراقى القديمة لتظهر فى كتاب ، فإننى أتصورها مشاركة متجددة فى استقبال آثار هذا الأديب واستقبال الأدب السويسرى الألمانى بصفة عامة ، وفى تقديرى أن الأدباء السويسريين فى عصرنا الحاضر يكتبون من موقف خاص هم على وعى به ، وهو أنهم يعيشون فى مكان محدود ضيق قد يتصورونه على هيئة الجزيرة أو الحى المقفول أو الزنزانة ، على ما فيه من جمال وثراء وحرية وقدرة كاملة على الدخول والخروج ، فهم على قلة عددهم لهم ثقافة يتمسكون بها ، ولكنها تنتمى إلى عالم الثقافة الألمانية الواسع ، وهم ينظرون من نافذتهم الضيقة إلى عالم فسيح يكتبون له الأدب أو ينشئون له الفنون ، ولهذا نجد دورينمات وفريش على ما بينهما من اختلاف يكتبان أدباً عالمياً ، أعنى أدباً للعالم ، وهذا يعنى أن الأديب السويسرى المعاصر يسعى بصفة مبدئية أساسية إلى إقامة العلاقة بين عالمه المحلى الصغير أشد الصغر وبين عالم الكون الواسع ، فقد يصف إنساناً يلوح لك كأنه يعانى من مشكلة نفسية أو مشكلة اجتماعية تمس كيانه الفردى ، فإذا تعمقت الدرس وجدت هذا الفرد أقرب ما يكون إلى خيط فى نسيج العالم كله يتصل به مروراً بخليته الاجتماعية الأسرية أو المهنية أو الطائفية ثم بمجتمعه الكبير ،

فهو يعانى مما يعانى منه العالم من مشكلات فلسفية وأخلاقية وعقائدية وسياسية ، وهأنتذا تدرك أن هذا الذى يصفه يعنيك ، ويحرك قلبك وفكرك ، فإذا كان الكون كله يعيش اليوم فى خوفٍ عام من فناء البيئة ومن مخاطر الطاقة ومخلفات الحضارة ومن الحرب ومن التسليح ، فالفرد الخائف الذى نلتقى به فى أعمال دورينمات وفريش وموشج وفوجت وغيرهم ليس خائفا لأسباب نفسية محدودة بذاته ، ولكنه يعانى من خوف يتنزل عليه من المجتمع ومن المحيط الثقافى الذى يضم هذا المجتمع بين جناحيه ومن المحيط الأوسع الذى هو الكون قاطبة .

ولهذا فقضايا القهر والحرب والحضارة والبيئة والحرية والاستغلال والهوية من القضايا التى يهتم بها الكتاب السويسريون ، ولهم فى معالجتها منظور يقوم على الجمع بين الفرد فى عالمه الصغير والإنسانية فى عالمها الكبير ، ومن الخير أن تطرح القضايا من هذا المنظور أيضا ففى ذلك ثراء لا مراء فيه فى خبراتنا بأنفسنا وبالغير .

كلمات عن حياة ماكس فريش :

(١٩١١ - ١٩٩١)

لدينا سيرة ذاتية موجزة كتبها ماكس فريش فى عام ١٩٤٨ أعيد ترجمتها هنا ، مع تصحيح وشرح ، فما زلت أرى من الخير أن نستعين بها ، وأن نبنى عليها عندما نتحدث عن حياة هذا الكاتب ، يقول : « ولدت فى عام ١٩١١ فى زيوريخ ، وليس اسم عائلتنا سويسرى الأصل ، فقد جلبه جدى من المنطقة النمساوية المجاورة عندما نزح منها فى صدر شبابه ليقيم فى سويسرا . وكان

جدى هذا يحترف صناعة السروج : ويبدو أن المقام طاب له فى زيوريخ فتزوج بواحدة من أهلها ، من أسرة رقيقة الحال تتسمى باسم **نيجلى** Naegli ، وكانت أسرة والدتى مختلطة الأصل ، فقد نزح جدها الأكبر واسمه **ڤيلدرموت** Wildermuth من ڤيتمبرج بألمانيا ، ونعرف عن ابنه ، وهو جدى المباشر ، أنه طرق سبيل الفن ، وصمم على أن يكون رساماً ، واتخذ رباط عنق ضخماً ، كان أكثر جرأة من رسومه ولوحاته ، وتزوج جدى هذا من واحدة من أهالى بازل من أسرة شولتهيس ولم تستطع جدتى طوال حياتها أن تنسى أن أسرتها كانت تمتلك عربة خاصة تجرها الجياد ؛ وعمل جدى ناظراً لمدرسة الحرف الصناعية ببلدتنا . هذا هو كل ما أعرفه عن أصلى . أما أمى فقد أحبت أن ترى الدنيا البعيدة فذهبت إلى روسيا القيصرية ، وعملت هناك مربية أطفال ، وما أكثر ما كانت أمى تحكى لنا عن روسيا القيصرية تلك وعما شاهدته فيها . أما أبى فكان يعمل فى البناء . لم يكن قد وجد إلى الالتحاق بالمدارس العليا من سبيل ، فما كان إلا ابن سروجى ، ولهذا كان أمله بطبيعة الحال أن يرى ابنيه وقد حصلا على الشهادات العالية . وترك أبى لكل منا أن يختار تخصصه فاختار أخى الأكبر الكيمياء التى ملأت سنوات صباه كما ملأت مطبخ بيتنا بصنوف من السحر كريهة الرائحة . فإذا حلت ساعات العصر يوم الأحد شهد أهل البيت مشهداً ألفوه فى ذلك اليوم من أيام الأسبوع ، ورأيته أنا كلما هطل المطر وحال بينى وبين ممارسة كرة القدم ، وبقيت فى البيت ، مشهداً تتضافر خيوطه على النحو التالى : كتاب الكيمياء على رف الشباك ، المعوجات تتصاعد منها الأبخرة الصفراء ، موقد بنزن ، الأنابيب التى تحاكى المعوجات الزجاجية ، وبين الفينة والفينة تدوى فرقعة اصطنعها أخى أو حدثت بالرغم منه.

ولست أعرف لماذا كنت بين رفاقى جميعاً الوحيد الذى لم يقرأ روايات **كارل ماى** Karl May [وروايات **كارل ماى** (١٨٤٢ - ١٩١٢) روايات مغامرات شيقة فيها شيء من التحامل على الشرق ، تدور أحداثها فى بلاد غريبة بالنسبة إلى الألمان ، منها مصر وغيرها من بلاد الشرق ، وهى - على ما فيها من عيوب - من أكثر الروايات انتشارا بين الصبية الألمان لاتكاد تجد منهم من لم يقرأها .] بل الحقيقة أننى لم أقرأ لا هذه الروايات ولاغيرها من الكتب باستثناء « **دون كيخوته** » و « **كوخ العم توم** » وهما كتابان ملكا علىّ نفسى على نحو لا سبيل إلى التعبير عنه بكلام ، فاكتفيت بهما ، أما ما شغفت به شغفاً عارماً لا سبيل إلى إشباع نهمه فكان كرة القدم ثم المسرح ، وتأثرت أشد التأثر بمسرحية شيللر « **قطاع الطرق** Die Rauber » عندما قُدمت فى عرض مسرحى يبدو أنه كان ضعيفا جداً ، ولكننى أعجبت بالمسرح إعجاباً بالغاً جعلنى لا أفهم لماذا لا يذهب الناس ، أعنى الكبار ، إلى المسرح ليقضوا فيه كل أمسياتهم ، وما الذى يمنعهم وقد توفر لهم مصروف الجيب ورفعت عنهم الواجبات المدرسية .

وما مضى شهران بعد مشاهدتى هذا العرض حتى أرسلت إلى **ماكس راينهارت** Max Reinhard بالمسرح الألمانى فى برلين خطاباً أنبئه فيه بمسرحيتى الأولى التى كتبتها بعنوان « **شتال** » ولا أذكر من هذه المسرحية إلا أن أحداثها كانت تدور بالليل على سطح عمارة عالية ، وأن أدخنة صفراء كتلك التى تتصاعد من المعوجات انبعثت عالية من كل نوافذ المدينة الكبيرة ،

وأن البطل الكريم لم يجد أمامه سبيلاً إلى النجاة يجربه فألقى بنفسه من علٍ . وجاءتنى بطاقة بريدية عليها طابع بريد أجنبى [ألمانى] تطلب منى بعبارة موجزة مهذبة إرسال النص الذى تحدثت عنه ، وكانت هذه البطاقة أول مكتوب تلقيته فى حياتى جاء فيه اسمى مسبوقا بكلمة : السيد .... كنت آنذاك فى السادسة عشرة من عمرى ، ولقد أحزننى أن أبى لم ير فى الأمر أكثر من لعبة من عبث الصبية ، كان قد وجد البطاقة فى صندوق الخطابات فأخذها وعندما جلسنا لتناول الغداء أبرزها ووضعها على المائدة فتناولتها ، وخرجت من الحجرة على الفور حانقاً أظن أننى لن أعود إليها مرة أخرى وانقضت أسابيع سبعة عاودتنى فيها أكثر الآمال جرأة ، وكيف لا ، ألـم يكـن **فريدريش شيللر** Friedrich Schiller عندما كتب مسرحيته « **قطاع الطرق** » فى الثامنة عشرة ؟ وعاد إلىّ البريد بالكراسة الجميلة التى كنت قد كتبتها فى غرفة منعزلة فوق سطح البيت على آله كاتبة استأجرتها لهذا الغرض ، ووجدت مع كراستى التى ردت إلىّ تقريراً تفصيلياً لم أفهم منه شيئاً ، كما وجدت دعوة إلى إرسال أعمالى التالية ، وكانت هذه الدعوة هى الشيء الوحيد الذى واجهت به الأسرة وهى ترمقنى بابتسامة كلها إشفاق .

واكتشفت بطريق المصادفة فى أحد متاجر الكتب مؤلفات **هنريك إبسن** Henrik Ibsen الكاملة ، وما طالعتها حتى تبينت أنها مسرحيات تستحق الثمن الذى دفعته فيها . وفى تلك الفترة التى سبقت تقدمى إلى امتحان الثانوية العامة – ذلك الامتحان الذى كنت أعتبره شيئا شكلياً تافهاً ومضحكاً وسخيفاً علىّ أن أتقدم إليه إرضاء لأبى – كتبت عدة أعمال ، ثلاث أو أربع

مسرحيات ، من بينها مسرحية كوميدية موضوعها الزواج ، كتبتها أنا الغر الذى لم أكن حتى ذلك الحين قد قَبّلت فتاة ، ومن بينها أيضا تمثيلية هزلية تهريجية من نوع الفارص تدور حول غزو القمر ، وكان الشىء الوحيد الذى اعترفت الدنيا لى به من هذه الأشياء كلها هو شهادة الثانوية العامة ، وبذلك أصبح التحاقى بالجامعة أمراً لا مفر منه ...

أتذكر سنتين عجيبتين قضيتهما قلقاً فى مدرجات الجامعة وفى ردهاتها أيضا . أحسست بالقلق وبالوحشة والاندفاع فى إصدار الأحكام وبالشك فى النفس ، وكثيراً ما اعتصرنى حب عفيف لا تعلم الحبيبة عنه شيئا . ولجأت إلى الفلسفة الخالصة يحدونى شوق عارم صادق إلى معرفة الحقيقة ، فلم أزد عن أنْ اكتشفت ما فى فكرى من عجز وقصور ، وكانت مادة تخصصى التى عكفت على دراستها هى اللغة الألمانية وآدابها ، ولكننى وجدت بالجامعة محاضرات أخرى ظننتها أكثر قرباً من الواقع وأكثر اقتراباً من سبر أغواره . كان الأستاذ كليريك Cleric الذى انتحر فيما بعد ، يصور لنا الوجود الإنسانى فى صورة غريبة، وكأنه يعكس لنا صورته مقلوبة مشوهة تشوّها آثما فى مرآة مقعرة، أما الاستاذ العجوز ڤولفلين Wolfflin فكان يقف رائعا وغريباً ، بعيداً عما يخالجنا من اضطراب ، ممسكاً فى يده بعصا من الخيزران كالرمح ، مبيناً مفاهيمه الأساسية ، عارضاً كل شىء بعبارة ناصعة كالمرمر ، كذلك استمعت إلى محاضرات فى علم اللاهوت من أفواه مشاهير الأساتذة ، فكنت تارة أختلف إلى هذه ، وتارة أخرى أختلف إلى تلك . والإنسان يفيد يقيناً من فترة القلق فائدة أكبر مما يظن عندما يكون غارقا فيها متبرماً منها ، ولعل إحساسى

المتزايد بأن كل ما سمعته فى الجامعة يفتقر إلى نقطة التقاء مشتركة تتوسطه ، وبأن الموضوعات الدراسية يتكدس بعضها بجانب البعض الآخر كالبضائع فى المتاجر فى ذلك الشيء الذى يسمونه الجامعة ، كان إحساساً صادقاً ، بل لعله كان معرفة بالحقيقة ، أياً كان الأمر فقد كان شعورى هذا علة محببة إلى نفسى أعلل بها عجزى عن النجاح فى مجال العلم .

ولما بلغت الثانية والعشرين مات أبى . وبات علىّ أن أبحث عن مصدر رزق فعملت صحفياً ، وكانت مهمتى تتلخص فى أن أصف كل ما يُطلب منى الذهاب إليه ووصفه : مواكب مهرجانات ، محاضرات عن بوذا ، صواريخ وألعاب نارية ، حانات الدرجة السابعة ، حدائق ، مباريات سباحة ، مظاهر الربيع فى حديقة الحيوان ، لم أرفض مما طلب منى سوى شيء واحد : هو وصف حرق الجثث [التى كان أصحابها يوصون بحرقها بعد موتهم على نحو ما تفعل طوائف فى الهند وغيرها] . ولقد كان هذا العمل الصحفى مدرسة أفدت منها فائدة لا مراء فيها . فلما تقررت إقامة مباريات بطولة العالم فى هوكى الثلج فى براغ تقدمت للعمل مراسلاً صحفيا هناك ، وتأهبت للرحلة بعد أن اشتريت أول حقيبة فى حياتى ، ولم يكن معى من المال سوى مائة فرنك سويسرى . والرأى عندى أن هذه الرحلة التى كانت أول رحلة لى فى خارج سويسرا قادتنى مع كل مقال كتبته خطوة بعد خطوة إلى مدارج العالم البعيد ، وكانت مقالاتى تنشر فى سويسرا أو فى المانيا .

هكذا ذهبت إلى المجر ، وهكذا تجولت فى ربوع صربيا وبوسنيا ودالماسيا ، وسرعان ما ربطتنى علاقات صداقة بعدد من النازحين الألمان ، وقضيت الصيف

كله هناك أتجول بالمركب الشراعى أياماً بطولها على الساحل [ساحل البحر الأدرياتيكى] لا أحمل عبء واجب تثقل على تأديته ، حراً طليقا ، أستقبل ما يأتينى به الحاضر راضياً قرير العين . هذه هى فى الحقيقة كل ذكرياتى عن سنوات شبابى .

ثم يممت بعد ذلك شطر البحر الأسود الذى طالما حدثتنا أمى عنه ، وذهبت إلى القسطنطينية حيث شاهدت المساجد وعرفت الجوع ، ووصلت بعد طول اشتياق إلى [قلعة] الأكروبوليس [التى تطل من فوق الجبل على أثينا] ، ثم تجولت فى المنطقة الوسطى من بلاد اليونان ، أسير على قدمى نهاراً ، وأنام فى العراء ليلا ، بل قضيت الليلة ذات مرة فى معبد أثرى صغير . كان هذا الوقت بالنسبة إلىّ وقتًا ثرياً عامراً بالأحاسيس ، نعمت فيه بالسعادة ، لم تعكر صفوها إلا سحابة حزن على امرأة فى ريعان الشباب اختطفتها يد المنون فجأة على غير انتظار .... وجاءت روايتى الأولى ثمرة هذه الفترة فكانت زاخرة بالصبا والشباب .

فلما رجعت من رحلتى إلى الوطن احتجت إلى عامين آخرين لأتبين حقيقة الصحافة الأدبية ، ولأدرك النهاية التى ينتهى إليها الإنسان إذا أمسك القلم – فى أوقات لايكون لديه فيها ما يقوله – وكتب شيئا ينشر على الناس لا يرجو من ورائه إلا الحصول على ما يعيش منه ، وعدت إلى الدراسة الجامعية مرة عندما بلغت الخامسة والعشرين . فقد رأت إحدى الصديقات ، عندما فكرنا فى الزواج ، أنه ينبغى علىّ قبل ذلك أن أصبح شيئا ، وعبّرت هذه الصديقة بذلك عما كان يدور بخلدى . ومهما يكن من أمر فقد أحسست بصدمة

عندما تصورت على نحو جاد أن حياتى يمكن أن تتعرض للفشل ، وكنت فى ذلك الوقت أقرأ رواية « هاينريش الأخضر Der grune Heinrich » [وهى الرواية التى يحكى فيها الكاتب السويسرى العظيم جوتفريد كيللر Gottfried Keller (١٨١٩ - ١٨٩٠) قصة حياته وقد حولها إلى قصة تنتهى بمأساة ، بطلها شاب تحمله أمواج حياة الفن المضطربة ، ولا يقيم لنفسه حياة منتظمة يقبلها المجتمع] . وأذهلنى هذا الكتاب بما تضمنته صفحات كثيرة فيه من عبارات بدت لى كنبوءة تصور لى مستقبل حياتى ، فلا غرابة فى أن يقوم هذا الكتاب منى مقام الأب ، بل مقام خير أب [يحض الابن على أن ينتظم فى الدراسة الجامعية ليتهيأ لحياة مطمئنة] .

وهكذا قر قرارى على أن ألتحق بالجامعة مرة أخرى ، وما كان قرارى هذا ليصل إلى غايته لو لم يواكبه حظ وافر تمثل فى صديق [من أيام التلمذة] عرض علىّ أن يتولى الإنفاق على معاشى طوال أربعة أعوام ، وهكذا استطعت العودة إلى الدراسة الجامعية [فى عام ١٩٣٦] ، والتحقت فى هذه المرة بالكلية السويسرية للهندسة ، وكنت فى البداية أحس بالبهجة كل البهجة إذ استطعت أن أقعد مقعد التعلم كل يوم عندما يسفر الصباح ، لا أحمل هم دخل شهرى لأنفق على أم وابن ، بل أعكف بدلاً من ذلك على الرياضيات العالية . ولكننى أخذت فيما بعد أحس بنوع من الألم المكبوت ، والخوف من تضييع شبابى دون أمل فى تحقيق هدف أبدا . وما لبثت علاقاتى بالناس أن تقطعت الواحدة بعد الأخرى ، ولم يكن من الممكن الجزم بأن ممارستى لمهنة المهندس المعمارى - إذا كنت سأملك مؤهلاتها وأصلح لها يوما ما ستصحح

علاقاتى بالعالم ، لأن كل شيء كان كخطوط لا تزال على الورق لم يتجسم منها شيء ، ولم يكن الدافع الذى دفعنى إلى مهنة الهندسة المعمارية هذه إلا عكس ما كان علىّ أن أعكف على تعلمه فى تلك الفترة الأولى ، فما دفعنى إلى تعلمها إلا السعى إلى معرفة ما لا تضمه أوراق السعى إلى الشيء الملموس ، اليدوى ، المادى ، وبات علىّ أن أصبر وأنتظر الانتقال من مرحلة الرسم والتصميم إلى مرحلة البناء عمليا ، وبخاصة مرحلة تنفيذ تصميماتى لأتبين هل كانت انطلاقتى الثانية إلى الدراسة الجامعية خاطئة أو صائبة .

أيا كان الأمر فقد جمعت ذات يوم كل ما كنت كتبته وحزمته حزماً حزمًا وألقيت به فى النار ، وكان فيها كراسات يومياتى ، ولقد ذهبت إلى الغابة مرتين ، لأن الحزم كانت أكثر من أن أحملها جميعاً دفعة واحدة ، وما زلت أذكر أن الجو كان مطيراً ، وأن النار كانت تنطفيء المرة بعد المرة من البلل فأعيد إشعالها ، حتى أتيت على علبة عيدان الثقاب كلها ، وأخيراً تم لى ما أردت ، وآن لى أن أعود إلى البيت ، وقد غشينى إحساس بالارتياح وشعور بالفراغ فى وقت معا ، وبقيت عامين كاملين لا أنكث الوعد الذى قطعته على نفسى سرأ ، وهو ألا أعود إلى الكتابة ، ولم أعد إلى الكتابة إلا يوم أعلنت التعبئة العامة فى البلاد ، وطلبت للخدمة العسكرية فى سلاح المدفعية ، عند ذلك أمسكت القلم وبدأت كراسة يوميات ، موقنا من أن الحرب [العالمية الثانية] ستدور علينا ، ومن أننى لن أعود إلى دارى حيا . ولا زلت أذكر ضابطا برتبة نقيب فى الجيش ، لم يحتمل شكلى ، وهو حر [فيما يحتمل وما لا يحتمل من أشكال البشر] ، قال لى فى الثالث من سبتمبر [من عام

١٩٣٩] صراحةً وفى غير مواربة إنه سيرسلنى إلى الموقع المناسب عندما تبدأ الحرب ، تلك ذكرى لن أنساها ، وما أظن أن هذا [الذى كان يدبره لى] يمت بسبب إلى التضحية من أجل الوطن . وانقضت أعوام ، أدركت بعدها أن هذا الضابط الذى لم تتح له قط فرصة التصرف فى حياتى أو موتى ، لأن الحدود [السويسرية] ظلت هادئة ، مكنّنى من خبرة حاسمة . ونشرت كراسة اليوميات هذه فى عام ١٩٤٠ بعنوان **«أوراق من كيس الخبز»** Blatter aus dem Brotsack وهى يوميات انقطعت عنها عندما حصلت على إجازة من الجيش .

فعندما هزمت فرنسا ، وأصبحنا فى وضع الأسرى ، حصلتُ من الجيش على إجازة شخصية للتقدم إلى امتحان الدبلوم العالى للهندسة المعمارية ، واعتُمدت مهندساً معماريا [فى عام ١٩٤١] وأصبح فى مقدورى أن أكسب قوتى بالعمل فى غير أوقات الاستدعاء للخدمة العسكرية ، وقد ربا عدد الأيام التى كلفت فيها بالخدمة العسكرية فى تلك السنوات عن خمسمائة يوم ، قضيت غالبيتها فى منطقة تيسين ثم إنجادين ، وتزوجت [فى عام ١٩٤٢] بمهندسة معمارية شابة كانت تساعدنى فى العمل على منضدة الرسم ، وتعد لى طعام الغداء [هى كونستانتسه فون ماينبورج Constanze von Meyenburg وكنا قد اشتركنا معا فى بناء بيت لنا . وما مر بعض الوقت حتى صدرت روايتى **« أحب ما يحرق ، أو المتعبون »** J'adore ce qui me brûle oder die Schwierigen فى عام ١٩٤٣ وتلقيت رسائل قليلة تمثل صدى ظهور هذه الرواية ، أذكر من بينها رسالة قليلة السطور أرسلها إلى

كورت هيرشفيلد Kurt Hirschfeld مدير مسرح زيوريخ يحثنى فيها على خوض تجربة الكتابة المسرحية ، وبدأت حياتى بصفة عامة تشهد فترة من الاطمئنان البطىء لم نكن قد نجونا من الحرب بعد ، ولكن علامات نهاية الحرب كانت قد اتضحت ، وكانت عملية غزو سويسرا قد وئدت فى مهدها ، تلك العملية التى ظلت طوال سنوات تتربص بنا وأثبتت الوثائق بعد ذلك أنها كانت مبيتة ومجهزا لها بدقة ، وأن موعد تنفيذها كان هو إبريل ١٩٤٣ ، أى بعد ستالنجراد ، وكان الهدف منها أن يجد قراء الصحف فى ألمانيا على الأقل خبر انتصار ألمانى صغير يتلهى بـــه [بعد الهزيمة الساحقة التى منيت بها قوات هتلر فى هذه الموقعة التى كانت بداية النهاية] وتغيرت النية المبيتة قبل موعدها المقرر بعشرة أيام بعد أن تمكنت الجاسوسية من الكشف عنه ، وهكذا تحققت لنا النجاة .

ثم رزقنا بطفلنا الأول ، وابتسم لنا الحظ فحصلنا فى مناقصة على عملية معمارية مغرية كبيرة [مشروع بناء حمام سباحة] ، فاستطعنا أن نفتتح مكتبا هندسيا خاصا بنا ، مما أتاح لنا حرية أكبر فى تنظيم ساعات عملنا ، ونشرت كتابا مـــن النثـر يحمل طابع الأحلام هـو « **بـــن أو الرحلة إلـــى بكين** Bin oder die Reise nach Peking » فى عام ١٩٤٤ كتبت بعده « **سانتا كروتس** Santa Cruz » وهى مسرحية من نوع الرومانسية ظلت طوال شهرين فى الخريف تدخل البهجة أكثر البهجة على جمهور المسرح ، وبعد ستة شهور أخـرى خـــرجت على الناس بمحاولة مسرحية من نوع أناشيد التأبين بعنوان « **ها هم أولاء يعودون إلى الغناء** Nun singen sie wieder » كتبـتـهـا فى

أسابيع قلائل ، وكانت أول عمل يخرج على المسرح ، فى عيد القيامة من عام ١٩٤٥ عندما وضعت الحرب أوزارها وظن الناس أن السلام يوشك أن يشق طريقه ولعل فترة إجراء البروفات التى وجه مسارها كورت هورفيتس Kurt Horwitz باهتمام موضوعى كبير هى أجمل فترة كان يمكن للمسرح أن يتيحها لى ، لقد كانت هى اللقاء الأول مع عباراتى ينطق بها ممثلون نابضون بالحياة يجسمون الشخصيات .

أما الأسابيع الأخيرة من الحرب فقد أمضيتها فى الخدمة على الحدود السويسرية النمساوية تارة ، والحدود السويسرية الإيطالية تارة أخرى ، وقمت برحلتى الأولى فى ربوع ألمانيا التى خربتها الحرب وكتبت فى أعقابها مسرحية « **سور الصين** Die chinesische Mauer » وهى مسرحية هزلية من نوع الفارص داخلتها منذ ذلك الوقت وشائج تشاؤم يائس . وظهر العرض الأول أيضاً على مسرح زيوريخ فى خريف عام ١٩٤٦ .

وكنت كلما سمحت لى ظروف العمل أقوم بمزيد من الرحلات إلى البلدان المجاورة ، وكان شوقى إلى التعرف على أهل زمانى من الجيران شوقا كبيراً بعد سنوات الحرب الخمس التى كنا إبانها سجناء فى ديارنا . والرأى عندى أن المشاهدة الشخصية ومعاينة الأشياء من الأمور البالغة الأهمية فى عالمنا هذا الذى جن بالأحكام المسبقة جنون المسحور [الذى لا يفك سحره] ، وظهر الجزء الأول من « **كراسة اليوميات** » التى قامت على المشاهدة الشخصية بعنوان « **يوميات مع ماريون** Tagebuch mit Marion » فى عام ١٩٤٧ .

وكنا فى هذه الأثناء قد وصلنا فى استعداداتنا [فى المكتب الهندسى] إلى مرحلة البدء فى تنفيذ المشروع ، وليست ممارسة الإنسان لمهنتين ، هما الأدب والهندسة المعمارية بالشيء السهل دائماً بطبيعة الحال ، على الرغم مما يحدثه هذا الجمع من تأثيرات مباركة عامرة بالخبرة ، وليست القضية فى المقام الأول قضية الوقت ، بل القدرة ، أما التأثيرات التى أراها مباركة عامرة بالخير فهى أن هذا الجمع أتاح لى أن أعمل يومياً مع رجال لا شأن لهم بالأدب ، يدركون بين الحين والحين أننى « أقرض الشعر » ولكنهم لا ينكرون علىّ هذا العمل مادام العمل الآخر فى مجال البناء والعمارة يتم كما ينبغى . وآخر ما كتبت من أدب مسرحية يدور موضوعها حول برلين هى مسرحية « **عندما انتهت الحرب** Als der Krieg zu Ende war » وهى الآن فى أيدى الأصدقاء»

هذه السيرة الذاتية الموجزة التى كتبها ماكس فريش فى عام ١٩٤٨ تحتاج إلى الإكمال على الأقل لنصل بها إلى نهايتها ، نراه فى عام ١٩٥١ يحصل على جائزة كونراد فرديناند ماير السويسرية ، وعلى منحة أمريكية تتيح له جولات فى ربوع الولايات المتحدة الإمريكية وزيارة المكسيك . ونتابع أعماله الأدبية فنجده ينشر مسرحية « **جراف أودرلاند** Graf Oderland » فى عام ١٩٥١ ، وخرج على الناس فى عام ١٩٥٣ بعملين هما مسرحية « **دون چوان أو حب الهندسة** Don Juan oder die Liebe zur Geometrie » ومسرحية « **بيدرمن ومشعلو الحرائق** Biedermann und die Brandstifter » التى أرادها فى البداية تمثيلية إذاعية ثم حولها إلى مسرحية بعد ذلك ، وفى

عام ١٩٥٥ اتخذ قراره بإغلاق المكتب الهندسى ليعيش من الأدب وللأدب .

يلفت النظر فى حياة ماكس فريش أنه أديب يحب المشاهدة والترحال ، وقد تتكرر رحلاته فيزور بلاد أوروبا الشرقية مراراً ويزور أمريكا كثيراً ، وقد تطول رحلاته فيقيم سنوات خمساً فى روما بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٦٥ ، وتراه بعد طول إقامة فى مسقط رأسه زيوريخ ينزح عنها ويقيم فى بيرتسونا بمنطقة تيسين

أما زوجته المهندسة فقد انفصل عنها عندما ترك المكتب الهندسى وارتبط بعلاقة وثيقة بالأديبة والشاعرة النمساوية إنجبورج باخمن Ingborg Bach-mann من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٢ ،ثم تزوج فى عام ١٩٦٨ زوجته الثانية ماريانه أولرس Marianne Oellers التى انفصل عنها فى عام ١٩٧٩ ، وتوفى فى زيوريخ فى إبريل من عام ١٩٩١ وقد قارب الثمانين .

آثاره :

صدرت الطبعة الكاملة فى ٧ مجلدات من عام ١٩٨٦ إلى عام ١٩٨٥ ضمت أكثر النشريات التى كانت قد صدرت حتى ذلك الحين . وماكس فريش في نظر الكثيرين كاتب مسرحى وكاتب رواية وقصة ، ولكن كتاباته التى شمل بها اليوميات والمقال الصحفى والمقال الأدبى والتمثيلية الإذاعية والتليفزيونية بالغة الأهمية .

ومن يتناول ماكس فريش بالدرس المدقق يجده كثيراً ما يتناول أعماله بالتحوير وبالصياغات الجديدة مما يطرح المزيد من الأسئلة عن هذا القلق الفكرى والفنى فأكثر المبدعين يرفعون أيديهم عن الأعمال التى يتمونها ويتركونها تعبر

عن لحظة نشأتها ، ولكن من المبدعين أيضا من يظلون مشغولين بالعمل بعد خروجه إلى الناس ، لا يكفون عن تحويره ، وماكس فريش من هذه الطائفة الثانية .

ونظرة سريعة إلى موضوعاته تبين لنا أنه كان فى البداية مشغولا بموضوعات مباشرة مثل الحرب والسلام ، وموضوعات من حياته ومشاهداته ثم بدأ فى مراحل النضج يخرج إلى الإطار العالمى الكونى الذى أشرنا إليه فى صدر هذا الحديث . كتب عن الحرب العديد من المسرحيات المباشرة نذكر منها « **هاهم أولاء يعودون إلى الغناء** » التى ظهرت فى عام ١٩٤٦ ، وكان للكتاب والقراء الألمان فيها سلوان ، فقد انقلب عصر النازية ، وبدأ عصر ما بعد الحرب ، وكانوا يتلمسون علامات الطريق ، وينصتون إلى أصوات العائدين كما ينصتون إلى أصوات المتعاطفين.

وقد نظن عندما نقرأ قصة حياة ماكس فريش عن دخوله عالم المسرح أنه شق طريقه معتمداً على عبقريته الخلاقة الفذة دون تأثر بأصحاب النظريات المعاصرين والحقيقة أنه تأثر بهم على نحو أو آخر متفقا ومعارضاً ومجدداً ، وليس تأثره بيرت بريشت Bert Brecht موضع شك ، على الرغم من أنه لم يذكر فى سيرته المختصرة لقاءه به فى زيوريخ بين عامى ٤٧ و ١٩٤٨ ، وعلينا أن نقلب فى يومياته التى سجلها آنذاك لتكشف عن جوانب هذا التأثر . ونلاحظ التشابه فى التقنية المسرحية وفى المفاهيم الاستطبقية المتداخلة مع المفاهيم التعليمية والتنويرية والنقدية فى العديد من الأعمال وبخاصة فى بيدرمن

ولكن ماكس فريش كان أبعد ما يكون عن التقوقع فى داخل قالب إيديولوجى ، بل كان منفتحا على الدنيا والناس ، على البعيد والآخرين ، لا يفتأ يجدد خبراته ، ويكتب مغترفا من معين متجدد .

هكذا تراه قد تأثر أشد التأثر بجولاته فى الولايات المتحدة على نحو ما نرى فى رواية **شتيللر** Stiller (١٩٥٤) وقصة **هومو فابر** Homo Faber (١٩٥٧) وكانت هذه الأعمال تشهد على الانطلاق بعيدا عن الحيز المحلى الضيق ، والاقتراب المتزايد من موضوعات لها صفة العمومية نذكر مسرحية **أندورا** Andorra التى حققت نجاحاً كبيراً فى عام ١٩٦١ وهى تعالج موضوعات التسامح وترفض التمييز القائم على العنصر والدين ، وتتمثل خاصة بما جرى على اليهود . من أعماله التى تتناول موضوع الهوية نذكر مسرحية **قصة حياة** Biografie (١٩٦٧) ورواية **ليكن اسمى جانتنباين** Mein Name sei Gantenbein (١٩٦٤) وموضوعها المحورى هو الهوية الذاتية ، وعلى وجه التحديد موقف الفرد من الأنا يقبلها أو يرفضها عندما يتبين ما أطبق عليها من زيف وما أحاط بها من تصورات ملفقة وبطولات كاذبة ، ومواقف من الحرب يرى فيها الاثم نفسه ويفخر بما لم يفعله .

ومن أعماله المتأخرة نذكر **تريبتيكون** Triptichon (فى عام ١٩٧٨ ، صياغة ثانية فى عام ١٩٨١) **وبلاوبارت** Blaubart = ذو اللحية الزرقاء فى عام ١٩٨٢ .

وليس من شك فى أن ماكس فريش استحسن مشروع إقامة أرشيف لأعماله وما يتصل بها من شواهد ومصادر وما كتب عنها وما أحدثت من تأثير وهو الأرشيف الذى أقامته كلية الهندسة فى زيوريخ ، معترفة بفضل تلميذها الذى بلغ من بلغ من الشهرة العالمية . وقد شارك فريش منذ عام ١٩٧٩ مشاركة فعالة فى إقامة هذا الأرشيف الخاص وأمده بما لديه من مخطوطات ووثائق .

بيدرمن :

كتب ماكس فريش **بيدرمن** فى البداية لتكون تمثيلية إذاعية « **السيد بيدرمن ومشعلو الحرائق** » (١٩٥٣) ثم صاغها مسرحية بالاسم نفسه تقريباً ، بعد أن حذف كلمة « السيد Herr » (١٩٥٨) وحققت المسرحية نجاحاً كبيرا لعله أكبر نجاح عرفه عمل من أعمال المسرحية على الإطلاق . يضم النص فى نسيجه العام مجموعة من أفكار فريش الرئيسية مثل رفض الحرب والعمل من أجل السلام ، وبخاصة السعى من أجل إقامة مجتمع جديد يحقق العدالة والسعادة على نحو متوازن ، وهو حلم قرب ماكس فريش من مواقف المعارضة والتجمعات اليسارية والأحزاب الاشتراكية ، وهو لا يعرف حلاً جديداً ولكنه على يقين من أن الإنسان يعانى فى عالم مبهم يزداد إبهاما ، ومن القوى يحلم بمزيد من القوة ، والغنى بمزيد من الغنى ، على حساب من يترفعون أو يعجزون أو يتعرضون للاستغلال .

فهو هكذا يعالج موضوعاً فلسفياً أخلاقياً اجتماعياً يحفز القارىء على التفكير فى كثير من الترابطات والإسقاطات ، أما القالب فهو قالب شبيه بالأسطورة وشبيه فى الوقت نفسه بالمسرحية اليونانية ذات الكورس الذى يتحدث بلسان الضمير .

والشخصية المحورية السيد بيدرمن رجل « شاطر » اختار له فريش هذا الاسم الألمانى المركب الذى يثير فينا هذا الإحساس أنه رجل من أهل هذا الزمان هدفه النجاح الذى يترجم إلى مال وأبهة ونفوذ واستغلال ، وهو فى سبيل هذا

الهدف يدوس القيم الأخلاقية ولا يهتم بالأبعاد الاجتماعية أو الإنسانية ، والأمثولة التى نعيشها فى هذا العمل الضاحك الباكى تتخلص فى أن هذا الرجل ، إذ يظن أنه يزداد ثراء وقوة وحنكة وقدرة على التصرف ، يزداد فى الحقيقة خوفاً وعجزاً وضعفاً وسخفاً ، وهو يتعامى ، ويضلل نفسه بوسائلة التزييفية حتى ينتهى به الأمر إلى الاشتراك مع مشعلى الحرائق فى حرق بيته ، وهو يتصور أنها لعبة من الألعاب التى تمكن منها ، ولن تلبث أن تنتهى لصالحه. هكذا تتضح الحقيقة بعد فوات الأوان ، ونرى هذا الإنسان الذى ظن أنه يستطيع التغلب على غرمائه المظلومين الذين لم ينالوا حظهم فى المجتمع وقد فقد كل شىء .

وليس من شك فى أن هذه المسرحية الأمثولة Parabel ترتبط بتراث عرفه الأدب الإنجليزى باسم **إيفريمن** Everyman ، وعرفه الأدب الألمانى باسم **يدرمن** Jedermann يدلنا على ذلك ما أدخله فريش فى مسرحيته من « مسرحية من داخل مسرحية » أو « نص من داخل نص » والاسم بيدرمن كلمة منسوجة على منوال يدرمن . وهذا اليدرمن ، أو هذا الـ **« كل إنسان »** نمط الإنسان المتكرر الذى يخطىء الخطأ البشرى ولا يتعلم .

مزج فريش إذن مسرحيته بعناصر من تمثيلية **يدرمن** القديمة التى انتشرت فى كتابات الألمان نقلا عن الإنجليز والهولنديين فى أواخر القرن الخامس عشر وموضوعها فى أصله موضوع يرجع - كما بينت البحوث المقارنة - إلى أصل عربى إسلامى . إليك هذا الإنسان الذى يتمتع بلذات الحياة دون أن يلزم قواعد الأخلاق والإيمان ودون أن يرعى حقوق الناس ودون أن يفكر فى الدار الآخرة ، وبينا هو على هذه الحال ، يظهر له ملك الموت فيفزع ويتمنى أن يتاح

له بعض الوقت ليتصدق وليكون من الصالحين ، ولكن هيهات : لم يبق إلا الحساب يوم يوضع الميزان .

تعددت صياغات هذه التمثيلية الوعظية أو الأمثولة وتنوعت فى العصور الوسطى ، وبداية العصور الحديثة ،ولدينا صياغة لها بقلم هانس زاكس Hans Sachs (١٤٩٤ - ١٥٧٦) بعنوان « **كوميديا الرجل الغنى الذى يدعى هيكاستوس عندما حضره الموت** » Comedi von dem reichen sterbenden Menschen, der Hecastus genannt تعتبر الصياغة التراثية المكتملة ، وهى التى جددها هوجو فون هوفمنستال Hugo von Hofmannsthal فى عام ١٩١١ بعنوان « **يدرمن تمثيلية وفاة الرجل الغنى** » Jerdermann. Das Spiel vom Sterben des reichen Mannes .

أفاد ماكس فريش من المادة الموروثة ، ولكنه وسع النطاق ليشمل مشكلات المجتمع الحديث الذى أتيح له من التقدم الفكرى والتقنى والعلمى والصناعى والتجارى الشىء الكثير ، ولكنه لم يزل يضم بين ظهرانيه الإنسان الذى يستغل أخاه الإنسان ليحقق الأرقام الأعلى فى التوزيع والنجاح والثروة والقوة ، ولكن غفلته عن الأبعاد الاجتماعية والإنسانية وعن القيم تهدد كل شىء بالفناء بل إن **يدرمن** عندما يواجه الامتحان ويدرك سوء عمله يسترسل فى الزيف والتزييف إلى النهاية ، إلى الهاوية .

دكتور مصطفى ماهر

القاهرة فى صيف ١٩٩٥

الأشخاص :

السيد بيدرمن	Herr Biedermann
بابيتّه : زوجته	Babette, seine Frau
أنّه : خادمة	Anna, ein Dienstmadchen
شميتس : مصارع	Schmitz, ein Ringer
أيزينرينج : جرسون	Eisenring, ein Kellner
شرطى	Ein polizist
دكتور فى الفلسفة	Ein Dr phil .
الأرملة كنيشتلينج	Witwe Knechtling
كورس يتكون من رجال المطافىء	Der Chor, bestehend aus den Mannen der Feuerwehr

المنظر : حجرة وسندرة .

(المسرح مظلم ، فجأة يشتعل عود ثقاب : السيد بيدرمن يشعل سيجارًا ، ويظهر وجهه فى ضوء عود الثقاب . وبينما تزداد الإضاءة يتلفت السيد بيدرمن حواليه . رجال المطافىء يحيطون به ، وعلى رؤوسهم خوذاتهم)

بيدرمن : لم يعد الإنسان اليوم يستطيع أن يشعل أى شيء .. حتى السيجار دون أن يفكر فى الحريق ! ... هذا شيء فظيع .

(يخفى بيدرمن السيجار الذى يتصاعد منه الدخان ، وينتحى جانباً ، عندئذ يتقدم رجال المطافىء على هيئة الكورس اليونانى القديم)

(ساعة برج تدق : ربع ساعة)

الكورس : يا أهل البلد ، تطلعوا ..
إلى حُماة البلد ، إلينا
فإنّا نترصّد ،
وإنّا نتصنّت ،
وإنّا نتلطّف مع المواطن اللطيف .

رئيس الكورس: فهو الذى يدفع لنا أجرنا .

الكورس : بعُدّة ممتازة
نَطوف حول بيوتكم ،
متيقظين وطيبين .

رئيس الكورس: وقد نجلس أحياناً ،
دون أن ننام ،
فنحن لا نعرف التعب .

الكورس : بل نترصّد ،

ونتسمع

فيظهر المكنون

قبل فوات الأوان ونرى ، ونكشف كل ما فيه خطر الحريق .

(ساعة برج تدق : نصف الساعة)

رئيس الكورس: وخطر الحريق كامن فى أشياء كثيرة ..

وليست كل نار تشتعل قدراً مكتوباً

لا رادّ له ولا مانع .

الكورس : أما ذلك الذى يسمونه لك بالقضاء والقدر ،

حتى لا تسأل كيف يتأتى وينقضى ؛

ذلك الشىء الفظيع الذى قد يأتى على مدن بأسرها ..

فحماقةٌ

رئيس الكورس: إنسانية .

الكورس : إنسانية جداً .

رئيس الكورس: تُبيد جنس المواطنين البورجوازيين الفانى .

(ساعة برج تدق : ثلاثة أرباع الساعة)

الكورس : والعقل قادرٌ على تجنب الكثير .

رئيس الكورس: حقاً

الكورس: فلا يجوز هذا من الرب أبداً ،

ولا يجوز هذا للإنسان أبداً ..

فهو إذا قدّر الأمور الإنسانية على هذا النحو

لا يستحق هذا الاسم أبداً .

ولا الأرض الربانية ،

السرمدية ،

ذات الخير والمنّة على الإنسان .

ولا الهواء الذى يتنسمه ،

ولا الشمس

تستحق

أن تسمى قضاء وقدراً ، لأنها حدثت:

الحماقة .

التى لم يكن هناك فيما مضى سبيل إلى إطفائها .

(ساعة برج تدق : أربعة أرباع الساعة)

رئيس الكورس: لقد حان وقت انتباهنا .

(يجلس الكورس بينما تدوّى دقات الساعة معلنة : الساعة التاسعة

المشهد الأول

حجـرة

(جوتليب بيدرمن يجلس فى حجرته ويقرأ الجريدة مدخناً سيجارا، وتدخل الخادمة أنّه بمريلتها البيضاء الصغيرة، حاملة زجاجة نبيذ)

أنّـــه : يا سيد بيدرمن ؟

(لا يجيب)

يا سيد بيدرمن –

(يطوى الجريدة)

بيـدرمن : لا بـد من تعليقـهم على المشانق . ألم أقل هذا مراراً وتكراراً ؟ ها هوذا حـريق جـديد . وهاهى ذى القـصـة نفـسـهـا تتكرر بحذافيرها ، القصة نفسها ، بالضبط : بائع متجول يدق الباب .. ويدخل .. ويعشش فى السندرة .. بائع متجول .. عادى .. لايثير مظهره شكّاً أو شبهة .

(يتناول الزجاجة)

لا بد من تعليقهم على المشانق !

(يأخذ الفتاحة)

أنّـــه : يا سيد بيدرمن

بيدرمن : ماذا تريدين ؟

أنـّـه : إنه لا يزال واقفاً ينتظر .

بيدرمن : من هذا ؟

أنـّـه : البائع المتجول الذى يريد محادثتك

بيدرمن : أنا لست بالبيت !

أنـّـه : لقد قلتُ له هذا ، يا سيد بيدرمن ، منذ ساعة ، ولكنه يقول إنه يعرفك . وأنا لا أستطيع أن ألقى به إلى الخارج ، يا سيد بيدرمن أنا لا أستطيع ذلك على الإطلاق .

بيدرمن : لماذا ؟

أنـّـه : لأنه قوى جداً ...

(بيدرمن يفتح الزجاجة)

بيدرمن : فليأت إذن إلىّ غداً فى المكتب .

أنـّـه : قلت له ذلك يا سيد بيدرمن ، قلته له ثلاث مرات ، ولكنه لم يُبدِ اهتماماً به .

بيدرمن : ولِم لا ؟

أنـّـه : لأنه لا يريد دهاناً للشعر .

بيدرمن : فماذا يريد إذن ؟

أنـّـه : يريد الإنسانية ...

(بيدرمن يشم السدادة)

بيدرمن : قولى له إننى سألقى به بيدى إلى الخارج إذا لم ينصرف الفور .

(يملأ باحتراس كأس النبيذ البورجونى)

الإنسانية !

(يتذوق النبيذ) .

عليه أن ينتظر فى الخارج ، وسأذهب إليه فى الحال . إذا كان يبيع شيئاً : كتيبات ، أو شفرات حلاقة ، فأنا لست مجرداً من الإنسانية ، ولكنى .. آه ، أنا لست مجرداً من الإنسانية يا أنّه ، أنت تعرفين ذلك تمام المعرفة ! ولكنى لا أريد أن يدخل أحد علىّ بيتى . لقد قلت لكِ هذا من قبل مائة مرة . حقيقة إننا لدينا ثلاثة أسرّة خالية ، ولكن لا أريد أن يدخل أحد علىّ بيتى ، هذا محال ، محال . فأنا أعرف إلى أين يؤدى بى مثل هذا التصرف فى أيامنا هذه .

(أنّه تهمّ بالانصراف فترى أن الرجل الغريب قد دخل ؛ رجل قوى البنية مفتول العضلات ، يرتدى حُلة تذكرنا تارة بالسجن وبالسيرك تارة أخرى وعلى ذراعه وشم ، وحول معصمه رباط من الجلد ، أنّه تتسلل إلى الخارج . أما الرجل الغريب فينتظر حتى يفرغ السيد بيدرمن من تذوق نبيذه ، ثم يلتفت إليه) .

شميتس : مساء الخير .

(يسقط السيجار من فم بيدرمن من فرط دهشته)

سيجارك ياسيد بيدرمن ..

(يلتقط السيجار ويقدمه إلى بيدرمن)

بيدرمن : قل لى ..

شميتس : مساء الخير

بيدرمن : ما هذا ؟ لقد قلت للبنت بمنتهى الوضوح إن عليكَ أن تنتظر فى المدخل فلماذا – هذا شىء لابد من أن أقوله – لماذا.. دون أن تقرع الباب ....

شميتس : اسمى شميتس .

بيدرمن : دون أن تقرع الباب .

شميتس : شميتس .. يوزف شميتس .

(صمت)

مساء الخير .

بيدرمن : وماذا تريد ؟

شميتس : لا تخف يا سيد بيدرمن : أنا لست بائعاً متجولاً .

بيدرمن : فماذا تكون ؟

شميتس : أنا مصارع محترف .

بيدرمن : مصارع ؟

شميتس : من الوزن الثقيل .

بيدرمن : واضح .

شميتس : أعنى أننى كنت مصارعاً فيما مضى .

بيدرمن : والآن ؟

شميتس : بلا عمل .

(فترة)

لا تخش شيئا يا سيد بيدرمن . أنا لا أبحث عن عمل . على العكس . فقد سئمت المصارعة ... وأنا إنما دخلت هنا لأن المطر ينهمر فى الخارج .

(فترة)

الدنيا هنا أكثر دفئًا .

(فترة)

أرجو ألا يكون فى ذلك إزعاج لك .

(فترة)

بيدرمن : هل تدخن ؟

(يقدم إليه سيجاراً)

شميتس : شىء فظيع يا سيد بيدرمن إذا كان للإنسان جسم قوى وعضلات مفتولة مثلى . شىء فظيع . كل الناس يخافوننى ... شكراً !

(بيدرمن يشعل له السيجار)

شكراً .

(يقفان ويدخنان)

بيدرمن : والآن ندخل فى الموضوع . قل لى باختصار .. ماذا تريد ؟

شميتس : اسمى شميتس .

بيدرمن : لقد قلت ذلك من قبل ... تشرفنا .

شميتس : أنا بلا مأوى .

(يقرب السيجار من أنفه ويتنسم رائحته الطيبة)

أنا بلا مأوى

بيدرمن : هل تريد قطعة من الخبز ؟

شميتس : إذا لم يكن لديك شيء آخر سواها ..

بيدرمن : أوَ تريد كأسا من الخمر ؟

شميتس : خبزاً وخمراً ... على ألا يكون فى ذلك إزعاج لك وإثقال عليك يا سيد بيدرمن ... على ألا يكون فى ذلك إزعاج لك وإثقال عليك !

(بيدرمن يتجه ناحية الباب)

بيدرمن : أنّه .

(بيدرمن يعود)

شميتس : لقد قالت لى البنت إن السيد بيدرمن يريد أن يلقى بك بنفسه إلى الخارج ، ولكننى يا سيد بيدرمن قلت فى نفسى إنك لا يمكن أن تكون جاداً فى هذا .

(أنّه دخلت)

بيدرمن : أحضرى كأساً أخرى .

أنّه : حالاً .

بيدرمن : وشيئاً من الخبز .. هه.

شميتس : وإذا لم يكن فى ذلك إثقال على الآنسة : شيئاً من الزبد ، وشيئاً من الجبن أو اللحم البارد .. أو ما إلى ذلك . على ألا يكون فى

ذلك إزعـاج أو مشـقـة ... وبعض الخيـار والطمـاطم أو مـا إلى ذلك ، وشيئاً من المسطردة مثلاً .. الموجود يا آنسة .

أنّـــــه : حالاً !

شميتس : على ألا يكون فى ذلك إزعاج أو مشقة .

(أنّه تخرج)

بيـدرمن : لقد قلتَ للبنت إنك تعرفنى .

شميتس : طبعاً يا سيد بيدرمن ، طبعاً .

بيـدرمن : ومن أين تعرفنى ؟

شميتس : أعرفك من أحسن جانب من جوانبك ، يا سيد بيـدرمن ، من أحسن جانب . وأنا أعلم أنك بالأمس ، عندما كنتَ جالسا إلى مـائدتك المعـهـودة فى الحـانة ، لم ترنى فى الركن الذى كنتُ قابعاً فيه . كم كان جمهور الحانة كله يبتهج ، يا سيد بيدرمن ويتهلل بشراً فى كل مرة كنتَ تدق فيها بقبضتك المائدة !

بيـدرمن : وماذا كنت أقول ؟

شميتس : الحق الذى لا حق غيره .

(يدخن سيجارة ، ثم يقول)

كنت تقول : لابد أن يعلقوهم على المشانق ! وكلما أسرعوا فى شنقهم ، كان أفضل .

مشعلى الحرائق ..

(بيدرمن يقدم إليه كرسياً وثيراً)

بيدرمن : تفضل ....

(شميتس يجلس)

شميتس : إننا بحاجة إلى رجال مثلك ، يا سيد بيدرمن

بيدرمن : نعم ، نعم ، بكل تأكيد ، ولكن ..

شميتس : ليس هنا محل لكلمة « ولكن » يا سيد بيدرمن ، كلمة « ولكن » كلمة لا محل لها هنا . أنت رجل من المعدن القديم العريق ، وأنت ثابت على الموقف الإيجابى لا تنصرف عنه . هذا هو السبب .

بيدرمن : بكل تأكيد .

شميتس : لا تزال لديك الشجاعة الأدبية .

بيدرمن : بكل تأكيد

شميتس : وهذا هو السبب .

بيدرمن : السبب فى ماذا ؟

شميتس : لا يزال عندك ضمير ، هذا هو الشيء الذى أحس به جمهور الحانة كله ، عندك ضمير بمعنى الكلمة .

بيدرمن : نعم ، نعم ، هذا شيء طبيعى .

شميتس : لا يا سيد بيدرمن ، ليس هذا بالشيء الطبيعى ، فى أيامنا هذه . فى السيرك الذى كنتُ أصارع فيه على سبيل المثال ولهذا أُحرق السيرك والتهمته النيران عن آخره .. مفهوم . وإليك مثل آخر : مديرنا ، لقد قال لى: هل يمكنك يا يويو – يويو اسم

التدلس ، واسمى الحقيقى يوزف – قال لى : هل يمكنك يا يويو أن تقول لـــى – وإليك كلامه بالحرف الواحد : هل يمكنك يا يويو أن تقول لى لماذا أحتاج إلى ضمير ؟ كلامه بالحرف الواحد – قال لى : إن كل ما أحتاج إليه لتسيير أمورى مع حيواناتى هو الكرباج . كلامه بالحرف الواحد . هكذا كان هذا الرجل ! ضمير ! ضمير ! ثم ضحك وقال : لو أنك وجدت إنساناً عنده ضمير فهو على الأرجح ضمير أثقلته الآثام .

(يدخن متمتعاً بالتدخين)

الله يرحمه .

بيدرمن : هل تريد أن تقول إنه مات ؟

شميتس : التهمته النيران هو وكراكيبه كلها .

(ساعة كبيرة قائمة تدق التاسعة)

بيدرمن : لا أفهم ماذا تعمل البنت طوال هذا الوقت .

شميتس : أنا لست على عجل .

(فجأة تتلاقى نظراتهما)

– وأنت ليس لديك بالبيت سرير خالٍ ، يا سيد بيدرمن ، هذا ما قالته لى البنت .

بيدرمن : لماذا تضحك ؟

شميتس : معذرة .. ليس لدينا سرير خالٍ . هذا ما يقوله الجميع . ما يكاد إنسان بلا مأوى يعرض لهم حتى يسمعونه هذه العبارة – مع أننى لا أريد سريراً على الإطلاق .

بيدرمن : لا تريد سريراً؟

شميتس : لقد تعودت يا سيد بيدرمن أن أنام على الأرض . فقد كان أبى حطّاباً . لقد تعودت على ذلك .

(يدخن وهو عاكف على نفسه)

لا محل لكلمة «ولكن» يا سيد بيدرمن . كلمة «ولكن» لا محل لها . أنا رأيى أنك لست واحداً من هؤلاء الذين يرفعون عقائرهم فى الحانة لأن خوفاً تملكهم . أنا أصدق كلامك . أنت تقول : معذرة .. ليس لدينا سرير خالٍ ... تلك عبارة يقولها الجميع . أما أنت ، يا سيد بيدرمن ، فتقولها صادقاً ، وأنا أصدقك ، أنا أصدق كل كلمة تقولها ... إلى أين تنتهي بنا الحال إذا لم يعد الواحد منا يصدق الآخر ؟ أنا دائما أقول : إلى أين تنتهى بنا هذه الحال يا أولاد ! كل واحد منا يشك فى الآخرِ ويظنه من مشعلى الحرائق . لقد انعدمت الثقة فى الدنيا . ألست على حق فى هذا ؟ لقد أحس جمهور الحانة جميعًا بأنك لا تزال تؤمن بما فى البشر من خير وبما فيك أنت من طيبة . كلهم أحسوا بذلك يا سيد بيدرمن. ألست على حق فى هذا ؟ أنت أول إنسان فى هذه البلدة لا يعاملنى كما لو كنت من مشعلى الحرائق .

بيدرمن : هذه هى الطفاية .

شميتس : ألست على حق فى هذا ؟

(ينفض رماد السيجار بعناية)

غالبية الناس اليوم لا تثق فى الرب ... تضع ثقتها فى رجال المطافىء .

بيـدرمن : ماذا تعنى بذلك ؟

شميتس : الحقيقة

(أنه تدخل حاملة صينية صغيرة)

أنّـــــه : ليس لدينا لحم بارد .

شميتس : يكفى هذا يا آنسة ، يكفى – آه ، لقد نسيتِ شيئاً ، نسيت المسطردة .

أنّـــــه : متأسفة !

(أنه تخرج)

بيـدرمن : كُلْ .

(بيدرمن يملأ الكأسين)

شميتس : هذه معاملة لايجدها الواحد منا فى كل مكان يا سيد بيدرمن ! أنا أقول لك هذا عن خبرة . ويا لها من خبرة . لقد رأيت الكثير ! ما يكاد الواحد منا يدخل بيتاً ، ما يكاد يتجاوز عتبة بيت .. بدون كرافته ، بدون مأوى ، جوعان ... حتى يجد من يستقبله قائلاً : تفضل ، اجلس .. ثم يتم الاتصال بالشرطة ، فى الخفاء .. من وراء ظهرك . ما رأيك فى هذا المسلك ؟ لست أطلب شيئاً أكثر من مأوى ، مأوى فقط ، أنا المصارع الشهير الذى أمضى حياته فى المصارعة . فجأة ، على غير انتظار ، يظهر أمامى رجل لم يمارس المصارعة على الإطلاق ، فيمسك بتلابيبى . هنالك أسأله : لماذا ؟ ولا أزيد عن أن ألتفت ورائى ، مجرد التفاتة ، لا لشىء إلا لأنظر إليه ، مجرد نظرة : وإذا به ينهار تماماً وتخور قواه .

(يتناول كأسا)

في صحتك .

(يشربان ، ثم يبدأ شميتس فى تناول الطعام)

بيـدرمن : هذه حكاية كل يوم يا سيـدى . حكاية والله . لايكاد الإنسـان يفتح جريدة حتى يطالعه خبر عن حريق جديد . جرى بالطريقة المعهودة، بالضبط : بائع متجول يظهر بالباب ، ويطلب مأوى ، وفى الصباح التالى يحترق البيت وتتصاعد منه ألسنة اللهب إلى عنان السمـاء .... كل ما أقـصده ، بصـراحة ، هو أننى أفـهم مســـــلك أولئك الذين يتسرب إلى نفـوسهم شىء من الشك والريبة .

(يتناول الجريدة)

هنا .. تفضل .

(يضع الجريدة منشورة أمام شميتس بجوار الصحن)

شميتس : رأيتها .

بيـدرمن : حى بأكمله التهمته النيران .

(يهب واقفاً ليعرض على شميتس ما جاء بالجريدة)

هنا: اقرأ .

(شميتس يأكل ويقرأ ويشرب)

شميتس : هذا ، هذا النبيذ « بوچوليه » ؟

بيـدرمن : نعم.

شميتس : الأفضل أن أنتظر حتى يسخن قليلا .

(ينظر إلى الجريدة من فوق الصحن ويقرأ)

– « ويبـدو أن الحريق تم تدبيره وتنفيـذه بالأسلوب نفسـه الذى اتبع فى المرة السابقة » .

(ينظر كل منهما إلى الآخر)

بيــدرمن : أليس هذا شيئاً عجيباً ؟

(شميتس ينحّى الجريدة جانبا)

شمـيتس : وأنا لهذا لا أقرأ الصحف .

بيــدرمن : ماذا تعنى بـ « لهذا » ؟

شمـيتس : لأنها تكتب دائماً نفس الشيء .

بيــدرمن : آه ، نعم يا سيدى ، صحيح ، طبعاً ، طبعاً . ولكن – ولكن امتناعك عن قراءة الجريدة يا سيدى ليس حلاً ، فلا بدّ للإنسان على أية حال أن يعرف ما سيجرى عليه .

شمـيتس : ولماذا ؟

بيــدرمن : لمجرد المعرفة .

شمـيتس : ولكنها آتية لا ريب فيها ، يا سيد بيدرمن ، آتية لا ريب فيها .

(يشم السجق)

الحكمةِ الإلهية .

(يقطع شيئاً من السجق)

بيــدرمن : أتظن ذلك ؟

(أنه تأتى بالمسطردة)

شمـيتس : شكراً يا آنسة ، شكراً .

أنّـــــه : هل تريد شيئاً آخر ؟

شمـيتس : ليس اليوم .

(تظل أنه بالباب)

المسطردة هى أشهى الأطعمة فى تقديرى –

(يضغط على الأنبوبة ليستخرج منها لنفسه بعض المسطردة)

بيـدرمن : لماذا تأتى الحكمة الإلهية ؟

شميتس : ومن أين لى أن أعرف .

(يأكل بنهم ويلقى نظرة أخرى إلى الجريدة ويقرأ)

– « ويرى الخبراء أن الحريق جرى تدبيره وتنفيذه بأسلوب المرة الماضية نفسه » .

(يضحك ضحكة قصيرة ثم يملأ كأسه بالنبيذ)

أنّـــه : يا سيد بيدرمن ؟

بيـدرمن : ماذا تريدين ؟

أنّـــه : السيد كنيشتلينج يودّ محادثتك .

بيـدرمن : كنيشتلينج ؟ الآن كنيشتلينج ؟

أنّـــه : إنه يقول ..

بيـدرمن : لا يمكن .

أنّـــه : إنه يقول إنه لا يستطيع أن يفهمك .

بيـدرمن : ولماذا يفهمنى ؟

أنّـــه : إنه يعول امرأة مريضة وثلاثة أولاد .

بيـدرمن : لا يمكن – أنا قلت لا يمكن .

(يهب واقفا من فرط الانفعال)

السيد كنيشتلينج ! السيد كنيشتلينج ! الله ! خيرٌ للسيد كنيشتلينج أن يتعد عنى وألا يعكر صفو حياتى ! يا حفيظ ! يا مغيث ! أعوذ بالله ! وله إن شاء أن يوكل عنه محامياً ، السيد كنيشتلينج ! أنا لا أقبل كل هذه التمثيلية التى يمثلها بسبب فصله . شىء مضحك ! والغريب أن هذا يحدث اليوم وقد وصلت التأميمات إلى حد لم تصل إليه من قبل فى تاريخ

الإنسانية ... نعم . عليه أن يوكل عنه محامياً . هه . وأنا كذلك سأوكل عنى محامياً . من أجل نصيبه فى اختراعه . نصيبه فى اختراعه عليه أن يختار بين أمرين ، إما أن يضع الموضوع تحت فرن الغاز أو يوكل عنه محامياً .. هه .. هذا إذا كانت لدى السيد كنيشتلينج القدرة على أن يكسب القضية أو على أن يخسرها .. هه ! هه !

(يتمالك نفسه وقد تركز بصره على شميتس)

قولى للسيد كنيشتلينج : عندى ضيف .

(أنه تخرج)

لا مؤاخذة !

شميتس : أنت هنا فى بيتك يا سيد بيدرمن .

بيدرمن : هل طَعْمُه على مزاجك ؟

(يجلس وينظر إلى الضيف كيف يتلذذ بالطعام)

شميتس : من كان يظن أنها لا تزال موجودة ، من كان يتصور أنها لا تزال موجودة ، فى أيامنا هذه .

بيدرمن : المسطردة ؟

شميتس : الإنسانية .

(يقفل أنبوبة المسطردة)

أعنى أنك لم تمسك بتلابيبى ، يا سيد بيدرمن ، ولم تلقِ بى إلى قارعة الطريق – إلى العراء ؛ حيث يهطل المطر – هذا هو يا سيد بيدرمن ما نحتاج إليه : الإنسانية .

(يتناول الزجاجة ويصب فى كأسه شيئا من الخمر)

ربنا يجازيك !

(يشرب ويتمتع بالخمر على نحو واضح)

بيـدرمن : لا ينبغـي أن تظـن الآن يا سيد شميتس أنني مجرد من الإنسانية .

شميتس : العفو يا سيد بيدرمن .

بيـدرمن هذا هو ما تدّعيه زوجة كنيشتلينج .

شميتس : لو أنك كنت مجرداً من الإنسانية يا سيد بيدرمن ، لما آويتني فى هذه الليلة ، هذا شيء واضح .

بيـدرمن : أليس كذلك ؟

شميتس : حتى وإن لم يكن المأوى سوى سندرة .

(يضع الكأس على المائدة)

الآن أصبحت خمرنا دافئة ، على خير ما ينبغى أن يكون عليه الدفء .

(يدق أحدهم جرس الباب)

الشرطة ؟

بيـدرمن : بل زوجتى .

شميتس : هه .

(الجرس يدق مرة أخرى)

بيـدرمن : تعال .. ولكن على شرط ألا تحدث ضجة ، فزوجتى يا سيدى مريضة بالقلب :

(تتناهى إلى السمع أصواتٌ نسائية . بيدرمن يلوّح إلى شميتس أن يسرع ويساعده فى حمل الصينية والكأس والزجاجة ، يسير الاثنان على أطراف أصابعهما ناحية اليمين حيث يجلس الكورس)

بعد إذنكم .

(يطلع فوق الأريكة وينزل من الناحيةالأخرى)

شميتس : بعد إذنكم .

(يطلع فوق الأريكة وينزل من الناحية الأخرى : يختفيان عن الأنظار بينما تدخل زوجة بيدرمن الحجرة من ناحية اليسار ترافقها أنه التى تحمل عنها ما أحضرته من أشياء)

بابيتّه : أين زوجى ؟ أنت تعرفين جيداً يا أنّه أننا لسنا من محدثى النعمة : من حقَك أن يكون لك صديق ، ولكننى أرفض أن نخبئه فى البيت يا أنّه !

أنّه : ليس لى صديق يا سيدتى .

بابيتّه : فلمن الدراجة الصدئة المركونة بجوار باب البيت ؟ لقد أوشكتُ عَلى الموت فزعاً عندما رأيتها .

السندرة

(بيدرمن يضغط على مفتاح النور فتضىء السندرة ، ويلوّح إلى شميتس أن يدخل . ويدور الحديث بينهما همساً)

بيدرمن : هنا المفتاح ... إذا أحسست بالبرد فهنا فى مكان ما فروة خروف قديمة على ما أظن – ولكن عليك بالهدوء التام أستحلفك بالله عليك بالسكون التام .. اخلع حذاءك .

(شميتس يضع الصينية ويخلع أحد حذائيه)

شميتس : يا سيد شميتس

بيدرمن : نعم يا سيد بيدرمن ؟

ولكن عليك أن تؤكد لى أنك فعلاً لست من مشعلى الحرائق ؟

(شميتس لا يجد مفرًا من الضحك)

هس !

(يهز رأسه بحركة تعنى ، تصبح على خير ، ويقفل الباب . شميتس يخلع الحذاء الآخر .)

الحجرة

(بابيته وقد سَمِعَتْ شيئاً - ترهف السمع - تنظر مفزوعة - ثم يبدو عليها الارتياح فجأة - وتتجه إلى المشاهدين)

بابيتّه : لقد وعدنى زوجى ، جوتليب ، وهو اسم على مسمى ، جوت ليب : حبيب الله - أن يذهب بنفسه فى كل مساء إلى السندرة ، وأن يفتش فيها بنفسه ، ويتأكّد شخصياً من عدم وجود أحدٍ من مشعلى الحرائق بها . كم أنا ممنونة ، شاكرة له ! فما كنت أستطيع أن أنام نصف الليل لو لم يفعل ذلك .

السندرة

(شميتس يذهب إلى المفتاح الكهربائى ويطفىء النور ، شميتس يلبس جورباً بغير حذاء)

الكورس : يا أهل المدينة الوطن
تطلعوا إلينا ونحن ساهرون ، نحن حراس البراءة ،
فى غير لؤم لا نزال
نحيط بالوّد المدينة النائمة ،
ونحن جالسون
ونحن واقفون .

رئيس الكورس: قد نحشو بالتبغ غليوناً لدفع الملل .

الكورس : مترصدون ،
متصنتون ،
حتى لا تفور من بين السقوف الأليفة
ألسنة من النيران عالية ،
تأتى على الوطن
على المدينة الوطن .

(ساعة برج تدق : الساعة الثالثة)

رئيس الكورس: كل إنسان على علم بأننا هنا ،
وبأن إشارة من الهاتف تكفى عندنا .

(يحشو غليونه)

الكورس: من الذى يضىء النور فى الحجرة
فى هذه الساعة ؟
آه، بأعصاب محطمة ،
منكودة مسهّدة مكدودة
أرى الزوجة

(بابيتّه تظهر مرتدية معطف البيت)

بابيتّه : هناك من يسعل .

(يتناهى إلى السمع صوت شخير)

المشهد الثانى

حجرة

(بيدرمن يقف مرتدياً المعطف وعلى رأسه القبعة وتحت إبطه الحقيبة الجلدية، يرتشف قهوة الصباح ، ويتكلم مع شخص خارج الحجرة)

بيدرمن : أقول لك للمرة الأخيرة : إنه ليس من مشعلى الحرائق .

صوت : وكيف عرفت ذلك ؟

بيدرمن : سألته ، سألته هو شخصياً ... ثم : ألم يعد هناك فى الدنيا شئ آخر يفكر فيه الإنسان سوى هذا الموضوع ؟ إن الإنسان ليصاب هكذا بالجنون ! آه ! يا لكم ، ولحديثكم الدائم عن مشعلى الحرائق .

(بابيته تدخل حاملةً آنية اللبن)

إن الإنسان ليصاب هكذا بالجنون .

بابيتّه : لاتصرخ فىّ على هذا النحو .

بيدرمن : أنا لا أصرخ فيك يا بابيتّه ، أنا أصرخ وحدى ، بمفردى

(تصب شيئاً من اللبن فى فنجانه)

لابد من أن أنصرف الآن .

(يشرب قهوته وهى ساخنة أكثر من المألوف)

إلى أين نصل إذا ظننا كل إنسان من مشعلى الحرائق ؟ لابد للإنسان من شيء من الثقة ، شيء من الثقة يا بابيتّه .

(ينظر إلى ساعة يده)

بابيتّـه : أنت طيب أكثر من اللازم . وإن هذه طيبة لا أشاركك فيها ياجوتليب .

لقد استحال عليّ النوم طوال الليل ، أما أنت فلا تُحَكِّم إلا قلبك . سأقدّم إليه طعام الإفطار ، ثم سأطلب منه بعد ذلك يا جوتليب أن ينصرف إلى حال سبيله .

بيـدرمن : افعلى هذا .

بابيتّـه : بكل لطف ، هه ، وبدون أن أجرح شعوره .

بيـدرمن : افعلى هذا .

(يضع الفنجان على المائدة)

لابد أن أذهب إلى المحامى .

(يقبّل بابيتّه قبلة عادية . فى هذه اللحظة يظهر شميتس وعليه فراء الخروف . يتكلمان دون أن يبصرا به)

بابيتّـه : لماذا فصلتَ كنيشتلينج ؟

بيـدرمن : لأننى لم أعد بحاجة إليه .

بابيتّـه : ولكنك كنت دائماً راضياً عنه كل الرضى .

بيـدرمن : وهذا هو بالضبط الشيء الذى أراد أن يستغله . لقد طالبنى بنصيبه فى الاختراع . طالبنى به وهو يعلم حق العلم أن ما ننتجه من دهان للشعر بضاعة تجارية ، وليس اختراعاً . شيء مضحك . إن السذج الذين يدلكون صلعتهم بدهان الشعر الذى ننتجه ، يمكنهم أن يصلوا إلى النتيجة نفسها إذا هم استعملوا بدلاً منه البول الذى يتبولونه .

بابيتّه : أرجوك يا جوتليب !

بيدرمن : هذه هى الحقيقة .

(يراجع محتويات الحقيبة ليتأكد من أنه لم ينسَ شيئا)

أنا طيب أكثر من اللازم ، أنت على حق فى ذلك . ولسوف ألوى رقبة كنيشتلينج وأنتهى من أَمره .

(يهمّ بالانصراف فيرى شميتس)

شميتس : صباح الخير .

بيدرمن : يا سيد شميتس .

(شميتس يمد يده إليه ليصافحه)

شميتس : لا داعى للكلفة ، قل لى بكل بساطة يا يويو .

(بيدرمن لا يمد إليه يده ليصافحه)

بيدرمن : ستتحدث زوجتى معك يا سيد شميتس . أما أنا فلا بد أن أنصرف الآن . للأسف . مع السلامة .

(يصافح شميتس)

مع السلامة ، يا يويو ، مع السلامة .

(بيدرمن يخرج)

شميتس : مع السلامة يا جوتليب ، هكذا أناديك .. بدون كلفة ، مع السلامة .

(بابيتّه تحملق فيه)

جوتليب . أليس اسم زوجكِ جوتليب ؟

بابيتّه : كيف نمتَ ؟

شميتس : شكراً . كانت الدنيا باردة . ولكننى سمحت لنفسى يا سيدتى باستخدام فراء الخروف - إنه يذكّرنى بأيام الصبا فى أكواخ الحطابين .. نعم . أنا معتاد على البرودة ..

بابيتّه : إفطارك جاهز .

شميتس : شكراً يا سيدتى .

(تشير إلى كرسى وثير ليجلس فيه)

هذا ما لا يمكنى قبوله .

(تملأ فنجانه بالقهوة)

بابيتّه : عليك أن تأكل جيداً يا يويو ، فلا شك أن أمامك طريقاً طويلاً .

شميتس : لماذا ؟

(تشير مرة ثانية إلى الكرسى الوثير طالبة منه الجلوس)

بابيتّه : هل تتناول بيضة طرية ؟

شميتس : بل بيضتين .

بابيتّه : أنّه .

شميتس : ها أنت ذى ترين يا سيدتى أننى أحس هنا كأننى فى بيتى . هكذا أنا على سجيتى .

(يجلس)

(أنه دخلت)

بابيتّه : بيضتين طريتين .

أنّه : تحت أمرك .

شميتس : لاتتركيهما فى الماء المغلى أكثر من ثلاث دقائق ونصف .

أنّه : تحت أمرك .

(أنه تهمّ بالانصراف)

شميتس : يا آنسة

(تقف أنه بالباب)

صباح الخير .

أنّـــه : خير ...

(أنّه تخرج)

شميتس : عجيبةٌ نظرةُ البنت إليّ ! أعوذ بالله ! يا ساتر ! أظن ! لو كان أمرى بيدها لتركتنى أقف على قارعة الطريق والمطر ينهمر فوق رأسى .

(بابيتّه تصب القهوة فى الفنجان)

بابيتّه : يا سيد شميتس .

شميتس : نعم ؟

بابيتّه : اسمح لى بأن أتكلم بصراحة .

شميتس : إنك ترتعدين يا سيدتى ؟

بابيتّه : يا سيد شميتس .

شميتس : ما الذى يقلقك؟

بابيتّه : هل تفضل الجبن ؟

شميتس : شكراً .

بابيتّه : أوَ تفضل المربى ؟

شميتس : شكراً .

بابيتّه : أو تحب العسل ؟ .

شميتس : بالدور يا سيدتى ، بالدور ، الواحد وراء الثانى ، الواحد وراء الثانى .

(يميل إلى الوراء ليسند ظهره إلى ظهر الكرسى الوثير ويأكل شريحة من الخبز وضع عليها الزبد ، ويعبّر عن استعداده للاستماع إلى كلامها)

نعم ؟ ماذا تريدين ؟

بابيتّه : بصراحة يا سيد شميتس ...

شميتس : قولى بكل بساطة يا يويو ..

بابيتّه : بصراحة ..

شميتس : إنك تريدين التخلص منى ؟

بابيتّه : لا ، يا سيد شميتس ، لا . لا أريد التعبير على هذا النحو

شميتس : فعلى أى نحو تريدين التعبير ؟

(يتناول قطعة من الجبن)

جبن تيلزيت ، هذا أحب الأطعمة إلىّ .

(يعود إلى إسناد ظهره إلى ظهر الكرسى ، ويأكل بشهية ويعبر عن استعداده للاستماع)

فأنت إذن يا سيدتى تعتبر يننى من مشعلى الحرائق .

بابيتّه : أرجو ألا تسىء فهمى . أم هل قلت شيئاً يحمل هذا المعنى ؟ لا ، يا سيد شميتس ، إن المساس بك شىء بعيد عن فكرى بعداً ما بعده بعد ، أؤكد لك بشرفى ! ولكنك شتّت ذهنى غاية التشتيت . أين هذا الذى يتحدث عن مشعلى الحرائق ؟ إننى يا سيد شميتس ، لا أشكو بحال من الأحوال من سلوكك .

(شميتس يضع الشوكة والسكين على المائدة)

شميتس : أنا أعرف أننى لا أحسن السلوك .

بابيتّه : لا يا سيد شميتس ، ليس هذا هو الموضوع .

شميتس : إن إنساناً يلوك الطعام بصوت مسموع .

بابيتّه : كلام فارغ .

شميتس : كانوا يقولون لى دائماً فى ملجأ الأيتام : يا شميتس لا تمضع بصوت مسموع .

(تتناول إبريق القهوة لتصب مزيداً منها)

بابيــتّــه : ربّاه ، إنك تسىء فهمى تماماً .

(يضع يده فوق فنجانه علامة على أنه لا يريد)

شميتس : سأنصرف الآن .

بابيــتّــه : ياسيد شميتس .

شميتس : سأنصرف الآن .

بابيــتّــه : ألا تريد فنجاناً آخر ؟

(يهز رأسه)

أو نصف فنجان ؟

(يهز رأسه)

لا يصح أن تنصرف هكذا يا سيدى ، فأنا لم أرد المساس بإحساسك ، وأنا يا سيدى لم أقل كلمة واحدة تحمل معنى أنك تمضغ بصوت مرتفع .

(يهبّ واقفا)

هل جرحت شعورك ؟

(يطبق فوطة السفرة)

شميتس : وهل تقع المسئولية عليك يا سيدتى إذا كنتُ إنساناً لا يحسن السلوك ولا يعرف اللياقة ؟! لقد كان أبى حطّاباً فمن أين لأمثالى حسن السلوك ؟ إننى يا سيدتى أحتمل الجوع والبرد ، ولا أتبرم منهما ، ولكن التجرد من التربية ، يا سيدتى ، التجرد من اللياقة ، يا سيدتى، التجرد من أسباب الحضارة .. من الثقافة ..

بابيــتّــه : فهمت .

شميتس : سأنصرف الآن .

بابيــتّــه : إلى أين ؟

شميتس : سأخرج إلى المطر المنهمر ..

بابيتّه : ربّاه !
شميتس : أنا معتاد عليه .
بابيتّه : أرجوك ياسيد شميتس ... لا تنظر إلىّ هكذا ... – لقد كان أبوك حّطاباً ، يا سيد شميتس ، فهمت ، فأنت إذن قد أمضيت بكل تأكيد شباباً قاسياً .
شميتس : بل لم يكن لى يا سيدتى شباب على الإطلاق

(يخفض بصره ويعّد على أصابعه مراراً)

على الإطلاق ، كنت فى السابعة من عمرى عندما ماتت أمى .

(يلتفت إلى الخلف ويجفف دموعه)

بابيتّه : ما لك يا يويو – لأ . لأ ... يا يويو

(تأتى أنّه وتحضر البيضتين الطريتين)

أنّـه : أية خدمة ؟

(لا يرد عليها أحد فتعود أدراجها)

بابيتّه : لن أطردك بحال من الأحوال ، ياسيدى ، وأنا لم أقل كلمة واحدة تحمل هذا المعنى ، بتاتاً ، رباه ، ماذا قلت ؟ إنك تسىء فهمى . فعلاً ، يا سيد شميتس ، هذا شىء فظيع ، فماذا أفعل حتى أجعلك تصدقنى ؟

(تمسكه – فى شىءٍ من التردد – من كمه)

تعال يا يويو ، تعال ، كُل .

(يعود شميتس إلى الجلوس إلى المائدة)

إنك تسىء الظن بنا أية إساءة ! إننى لم ألحظ أنك تمضع بصوت مرتفع . أقسم لك بشرفى . ثم هب أننى لحظت ذلك : إننا لا نهتم بالظواهر يا سيد شميتس ، ولابد أنك أحسست بهذا . يا سيد شميتس، لسنا من هذا النوع ..

(يفض البيضة)

شميتس : ربنا يجازيكم !

بابيتّه : هذا هو الملح .

(يأكل البيضة بالملعقة)

شميتس : صحيح يا سيدتى ، صحيح أنك لم تطردينى ، وأنك لم تقولى كلمة تحمل هذا المعنى ، صحيح . أرجو المعذرة ، أرجو أن تسامحنى سيدتى على إساءتى فهمها .

بابيتّه : هل هى على مزاجك ، البيضة ؟

شميتس : طرية أكثر مما ينبغى ، أكثر قليلاً مما ينبغى ... أنا متأسف جداً

(فرغ من البيضة)

ماذا كنتِ تريدين أن تقولى يا سيدتى ، فى البداية ، عندما قلت : بصراحة .

بابيتّه : آه ، ماذا كنت أريد أن أقول أصلاً .

(يفض البيضة الثانية)

شميتس : ربنا يجازيكم !

(يأكل البيضة الثانية بالملعقة)

وفيللى يقول دائمًا إنها لم تعد موجودة ، يعنى : الرحمة فى القطاع الخاص ، لم يعد للكرام وجود فى هذه الأيام ... التأميم شمل كل شىء . كل شىء قطاع عام ... لم يعد هناك بشر .. لم يعد هناك أناس .. بشر .. هذا هو كلامه . ولهذا السبب فإن الدنيا خربت – لهذا السبب .

(يرش ملحاً على البيض)

لو كان الآن هنا لما وسعته الدهشة ، لو نال إفطارًا كهذا لما وسعته الدهشة ، سى ڤيللى .

(يدق أحدهم جرس باب البيت)

بابيتّه : ومن هو سى ڤيللى هذا ؟

شميتس : رجل عنده ثقافة ، يا سيدتى ، سترين بنفسك ، لقد كان جرسوناً فى فندق متروبول قبل أن يحترق ، متروبول .

بابيتّه : يحترق ؟

شميتس : جرسون أول ، رئيس الجرسونات .

(دخلت أنّه)

بابيتّه : من الذى دق الجرس ؟

أنّه : رجل .

بابيتّه : وماذا يريد ؟

أنّه : يقول إنه من رجال التأمين ضد الحريق ، وإنه أتى ليرى البيت .

(بابيتّه .... تقف)

إنه يلبس بدلة فراك

(بابيتّه وأنّه تخرجان . شميتس يصب قهوة فى فنجانه)

شميتس : إنه ڤيللى !

.

الكورس : لقد أصبحتا الآن اثنتين
تثيران فينا الشك والريبة
اثنتين ، دراجتين ، صدئتين
لهما بالطبع صاحبان، يا ترى من هما ؟

رئيس الكورس: إحداهما منذ الأمس ، والأخرى منذ اليوم .

الكورس : آه ، ثم آه .

رئيس الكورس: لقد حلّ الليل ، وها نحن هؤلاء ساهرون .

(ساعة برج تدق)

رئيس الكورس: الخوّاف يرى الكثير حيث لا شيءَ يُرى
حتى ظلّه هو يثير فيه الفزع
وكل شائعة تلقاه متأهباً للنضال ، متحفزاً
ثم ما يلبث أن يترنح
ثم يعيش فى الرعب أيامه
حتى تدخل النازلة عليه :
فى قلب حجرته .

(ساعة البرج تدق)

رئيس الكورس: إنهما لا يغادران البيتِ ، الاثنان لا يخرجان
فكيف أفسر ذلك يا ترى ؟

(ساعة البرج تدق)

الكورس : الخوّاف أعمى من الأعمى
يرتعد إذ يحدوه الأمل
فى ألا يكون المحظور قد أتاه
فيتلقاه بالبشر والترحاب
أعزل من كل سلاح .. آه
ومن الخوف قد تعب .
والخير كلّ الخير يرجو
حتى يفوت الأوان .

(تدق ساعة البرج)

الكورس : آه ، ثم آه !

(الكورس يجلس)

المشهد الثالث

السـنـدرة

(شميتس ولا يزال مرتديا ثياب المصارع ، والرجل الآخر وقد خلع سترة الفراك وبقى بالصديرى الأبيض ، مشغولان بدحرجة براميل إلى داخل السندرة ، براميل مصنوعة من الصاج من تلك التى تستـعمل فى نقل البنزين . الاثنان يتـوخيـان أكـبر قـدر من الهـدوء ، وقـد خلعـا لذلك أحذيتهما)

الآخــــر : بهدوء ! هش ! هش !

شميتس : وماذا لو خطر بباله أن يتصل بالشرطة ؟

الآخــــر : إلى الأمام ! إلى الأمام !

شميتس : ماذا يحدث؟

الآخــــر : على مهلك ، على مهلك .... قف .

(دفعا البرميل إلى البراميل الأخرى التى تبدو مرصوصة فى الضوء الخافت . يتناول الآخر شيئاً من ليف التنظيف وينظف أصابعه)

ولماذا يتصل بالشرطة ؟

شميتس : ولماذ الا يتصل بها ؟

الآخــــر : لأنه مذنب هو نفسه .

(يتناهى إلى السمع صوت رنيم الحمام)

لقد طلع النهار للأسف ، هيا بنا ننام .

(يلقى بالليف)

كل مواطن مذنبٍ ، أو إذا أردنا الدقة : كل مواطن ابتداءً من دخل معين . فلا تحمل همّاً .

(يقرع أحدهم الباب الموصد بالمزلاج)

بيـدرمن : افتح ! افتح !

(إنه يقرع الباب بعنف ويرجّه رّجاً)

الآخــــر : ليست هذه دعوة لتناول طعام الإفطار .

بيـدرمن : افتح ، افتح حالاً ، أنا أقول لك افتح ، حالاً .

شميتس : لم يحدث أن تصرف على هذا النحو من قبل .

(يشتد الضجيج أكثر فأكثر ، يرتدى الآخر سترة الفراك ، فى غير هرولة ولكن بسرعة ، ويضبط الكرافتة فى موضعها ، ثم ينفض الغبار عن نفسه ويفتح الباب : يدخل بيدرمن مرتدياً معطف البيت ولا يلحظ الزميل الجديد لأنه يقف وراء الباب المفتوح)

بيـدرمن : يا سيد شميتس .

شميتس : صباح الخير يا سيد بيدرمن ، صباح الخير ، أرجو ألا تكون الكركبة السخيفة قد أيقظتك من النوم .

بيـدرمن : يا سيد شميتس ..

شميتس : أعدك بأنها لن تتكرر مرة أخرى أبداً .

بيـدرمن : اخرج من بيتى .

(فترة)

أنا قلت : اخرج من بيتى .

شميتس : متى ؟

بيـدرمن : فوراً .

شميتس : لماذا ؟

بيـدرمن : وإلا فإن زوجتى ستطلب الشرطة ، ولن أستطيع منعها من ذلك ، ولن أمنعها .

شميتس : هكذا .

بيـدرمن : فوراً ، فوراً .

(فترة)

لماذا تتلكأ ؟

(يتناول شميتس حذاءه فى صمت)

لا أريد مناقشات .

شميتس : أنا لا أقول شيئاً .

بيدرمن : ربما خطر ببالك يا سيد شميتس أننى سأسكت على كل ما تفعل لا لشىء إلا لأنك مصارع – هذا الضجيج ، هذه الكركبة طوال الليل .

(يشير بيده إلى الباب)

اخرج ، اخرج . قلت لك . اخرج .

(شميتس يتحدث إلى الآخر)

شميتس : لم يحدث مطلقا أن تصرف على هذا النحو .

(بيدرمن ينظر خلفه فتخرسه المفاجأة)

الآخر : اسمى أيزينرينج .

بيدرمن : أيها السادة ؟

أيزينرينج : ڤيلهلم أيزينرينج .

بيدرمن : لماذا يا سادة أصبحتم اثنين ، رجلين ، هكذا فجأة ؟

(شميتس وأيزينرينج ينظر أحدهما إلى الآخر)

وبدون سؤال ، بدون استئذان .

أيزينرينج : أرأيت !

بيدرمن : ماذا تعنى ؟

أيزينرينج : أليس هذا هو ما قلته لك ، أما قلت لك إن هذا لا يليق ، يا يويو أنت لا تعرف اللياقة . هكذا دون سؤال ، دون استئذان . ما هذا السلوك : لقد أصبحنا اثنين فجأة .

بيدرمن : أنا مذهول .

أيزينرينج : أرأيت !

(يتجه إلى بيدرمن)

لقد قلت له ذلك .

(يتجه إلى شميتس)

أما قلت لك ؟ !

(شميتس يخجل)

بيـدرمن : ماذا خطر ببالكما ، أنت وهو ؟ إننى أخيراً وبعد كل شىء وفى نهاية المطاف صاحب البيت . إننى أتساءل: ماذا خطر ببالكما ، أنت وهو ؟

(فترة)

أيزينـرينـج عليك أن تجيب عندما يسألك السيد .

(فترة)

شميتس : فيللى هذا صديقى .

بيـدرمن : ثم ماذا ؟

شميتس : ثم إننا ذهبنا إلى المدرسة سوياً ، يا سيـد بيـدرمن ، عندما كنا صغاراً .

بيـدرمن : ثم ماذا ؟

شميتس : ثم فكرت ...

بيـدرمن : نعم ؟

شميتس : ثم فكرت ...

(فترة)

أيزينرينج : أنت لم تفكر فى شىء .

(يلتفت إلى بيدرمن)

أنا مقدر لموقفك تمام التقدير ، يا سيد بيدرمن ، كل شيء صحيح .. وأخيراً وبعد كل شيء وفى نهاية المطاف ..

(يصرخ فى شميتس موبخاً)

هل تظن أن على صاحب البيت أن يرضى بكل شيء ، أن يسكت على كل شيء ؟

(يلتفت إلى بيدرمن)

وسى يويو لم يستأذنك على الإطلاق ؟

بيدرمن : لم يقل كلمة واحدة .

أيزينرينج : هكذا يا يويو .

بيدرمن : ولا كلمة واحدة ؟ !

أيزينرينج : وبعد هذا تدهش عندما يرميك الناس فى الشارع ؟

(يهز رأسه ويضحك ضحك المرء من إنسان غبى)

بيدرمن : ليس فى هذا ما يضحك يا سادتى . إن الأمر بالنسبة إلى جادٌ شديد الجد . إن زوجتى يا سادة قلبها مريض ..

أيزينرينج : أرأيت !

بيدرمن : لم تنم زوجتى نصف الليل . نتيجة للضجيج ، ولكن لندخل فى صلب الموضوع ..
ماذا تفعلان هنا ؟

(ينظر حواليه)

يا للمصيبة ! ما هذه البراميل ؟

(شميتس وأيزينرينج ينظران حيث لا توجد براميل)

لا ، هنا ، هنا . من فضلكم ، ما هذه ؟

(يخبط على برميل)

ما هذه ؟

شميتس : براميل .

بيـدرمن : ومن أين أتت ؟

شميتس : هل تعرف يا ڤيللى من أين أتت ؟

أيزينرينج : مستوردة ، مكتوب عليها .

بيـدرمن : يا سيدى ، يا حضرة –

أيزينرينج : مكتوب عليها أنها صنعت فى مكانٍ ما .

(أيزينرينج وشميتس يبحثان عن مكان الكتابة)

بيـدرمن : ماذا أقول ، لا أجد كلاما أقوله ما الذى خطر ببالكما؟ لماذا تملآن سندرتى كلها بالبراميل ... بكل هذه البراميل المصفوفة المرصوصة .

أيزينرينج : بالضبط !

بيـدرمن : ماذا تعنى ؟

أيزينرينج سى يويو أخطأ فى الحساب .. حسب اثنى عشر برميلاً على خمسة عشر متراً ، هذا هو حسابك ، والسندرة كلها أقل من مائة متر مربع .. فماذا أفعل بالبراميل الزائدة ؟ لا أستطيع أن أتركها فى الشارع ، يا سيد بيدرمن ، ولا شك أنك تفهم هذا.

بيـدرمن : أنا لا أفهم شيئاً .

(شميتس يشير إلى اللوحة التى كتبت عليها بيانات البرميل)

شميتس : هنا يا سيد بيدرمن ، هنا اللوحة .

بيـدرمن : لسانى انعقد .

شميتس : هنا مكتوب اسم المكان الذى أتت منه ، هنا .

بيـدرمن : لسانى انعقد .

(يحملق فى اللوحة)

تحت

(أنة تصطحب أحد رجال الشرطة إلى داخل الحجرة)

أنـــــه : سأناديه .

(تذهب وينتظر رجل الشرطة)

بيـدرمن : **فـوق**

بنزين ؟

تحت

(أنه تعود)

أنـــــه : ما هو الموضوع يا حضرة الضابط ؟

رجل الشرطة : موضوع خاص بالعمل .

(أنه تذهب ورجل الشرطة ينتظر)

فـوق

بيـدرمن : هل هذا صحيح يا سادة ، هل هذا صحيح ؟

أيزينرينج : ماذا ؟

بيـدرمن : المكتوب على اللوحة .

(يشير لهما إلى اللوحة)

من تظنوننى ؟ هذا شيء لم يحــدث لى من قــبل ، أم هل تعتقدان أننى لا أستطيع القراءة ؟

(يحملقان فى اللوحة)

انظرا ، هه .

(يضحك ضحك الإنسان من شىء لا حياء فيه)

بنزين ؟

(يتكلم بلهجة وكيل النيابة عندما يحقق)

ماذا فى هذه البراميل ؟

أيزينرينج : بنزين .

بيــدرمن : ليس هذا مجال التنكيت . أنا أسألكما للمرة الأخيرة : ماذا فى هذه البراميل ؟

وأنتـمـا تعلمـان كـمـا أعلم أنا تمامًا أن البنزين لا مكان له فى السندرة .

(يمسح بإصبعه على أحد البراميل)

من فضلك – شم بنفسك .

(يضع إصبعه تحت أنف كل منهما)

هل هذا بنزين أم لا ؟

(يشمشمان ثم ينظر الواحد منهما إلى الآخر)

أريد الإجابة .

أيزينرينج : هذا بنزين .

شميتس : هذا بنزين .

الاثنان معا : بكل تأكيد .

بيدرمن : هل أنتما من المجانين ؟ أتملآن سندرتى بالبنزين !

شميتس : ونحن لهذا لا ندخن يا سيد بيدرمن .

بيدرمن : وتفعلان هذا يا أيها السادة فى هذا الوقت الذى ما يكاد الإنسان فيه يفتح جريدة حتى يقرأ فيها تحذيراً ، فيم تفكران ؟ علام تنويان ؟ لو أن زوجتى رأت هذا لأصابها الشلل على الفور .

أيزينرينج: أرأيت !

بيدرمن : لا تقل أرأيت ! أرأيت ! بمناسبة وبغير مناسبة .

أيزينرينج : هذا شيء لا يحق لك يايويو أن تتوقعه من امرأة ، من ربة بيت ، وأنا أعرف ربات البيوت .

(أنه تنادى فى بير السلم)

أنـه : يا سيد بيدرمن ، يا سيد بيدرمن .

(بيدرمن يغلق الباب)

بيدرمن : يا سيد شميتس . يا سيد ...

أيزينرينج : أيزينرينج .

بيدرمن : إذا لم تقوما فى الحال بإخراج هذه البراميل من البيت ، فى الحال ، على الفور ، مفهوم !

أيزينرينج : فسوف تستدعي الشرطة .

بيـدرمن : نعم .

شميتس : أرأيت .

(أنّه تنادى فى بير السلم)

أنّـــــه : يا سيد بيدرمن .

(بيدرمن يقول هامساً)

بيـدرمن : لقد كانت تلك هى كلمتى الأخيرة .

أيزينرينج: أية كلمة ؟

بيـدرمن : أنا لا أقبل أن يكون فى سندرتى بنزين ، أقولها بملء فمى للمرة الأخيرة .

أنا لا أقبل ذلك على الإطلاق .

(يقرع أحدهم الباب)

حاضر ، حاضر .

(يفتح الباب ليخرج فيدخل رجل الشرطة)

رجل الشرطة : أنت هنا يا سيد بيدرمن ، الله ، أنت هنا ، إذن فلا حاجة بك إلى النزول ، وأنا لن أزعجك طويلا .

بيـدرمن : صباح الخير .

رجل الشرطة : صباح الخير .

أيزينرينج : .. باح الخير.

شميتس : .. باح الخير .

(شميتس وأيزينرينج ينحنيان)

رجل الشرطة : الموضوع يتلخص فى أن حادثة وقعت .

بيدرمن : يا ساتر يا رب .

رجل الشرطة : رجل متقدم فى السن تدّعى زوجته أنه كان يعمل لديك – كمخترع ! – فتح على نفسه فى هذه الليلة صنبور الغاز .

(يراجع كراسته الصغيرة)

اسمه كنيشتلينج ، يوهان كنيشتلينج ، عنوانه : حارة روسجاسه ، نمرة ١١ .

(يدس الكراسة الصغيرة فى جيبه ثانية)

هل كنت تعرف شخصاً تنطبق عليه هذه البيانات ؟

بيدرمن : نعم .

رجل الشرطة : ربما فضلت يا سيد بيدرمن أن يكون الحديث بينى وبينك وحدنا .

بيدرمن : نعم .

رجل الشرطة : فالموضوع لا شأن لخدمك به .

بيدرمن : لا ..

(يظل واقفا بالباب)

وإذا بحث أحد عنى يا سادة فأنا فى قسم الشرطة ، مفهوم ؟ وسأعود على الفور .

(شميتس وأيزينرينج يهزان رأسيهما بالإيجاب)

رجل الشرطة : يا سيد بيدرمن ..

بيدرمن : هيا بنا نذهب .

رجل الشرطة : ماذا تضعون فى هذه البراميل ؟

بيدرمن : أنا ؟

رجل الشرطة : إذا سمحت لى بأن أسأل .

بيدرمن : دهان للشعر .

(ينظر إلى شميتس وأيزينرينج)

أيزينرينج : ماركة « هورموفلور » .

شميتس : « صيحة الارتياح فى دنيا الرجال » .

أيزينرينج : هورموفلور .

شميتس : « جربه اليوم .. ولا تنتظر إلى الغد » .

أيزينرينج : « لن تندم فسترى أثره الفعال » .

الاثنان معـا : هورموفلور .. هورموفلور .. هورموفلور .

(رجل الشرطة يضحك)

بيدرمن : هل مات ؟

(بيدرمن و رجل الشرطة يخرجان)

أيزينرينج : رجل ظريف .

شميتس : ألم أقل لك هذا ؟

أيزينرينج : ولكنه لم يشر إلى طعام الإفطار بكلمة واحدة .

شميتس : لم يتصرف على هذا النحو من قبل قط .

(أيزينرينج يدس يده فى جيب البنطلون)

أيزينرينج : هل معك كبسولة الإشعال ؟

(شميتس يدس يده فى جيبه)

شميتس : لم يتصرف على هذا النحو من قبل قط .

الكورس : شعاع الشمس

يا رمش العين الإلهية

أَضيء مرة أخرى بنورك

نهاراً

سقوف المدينة الأليفة .

رئيس الكورس: اليوم كالأمس .

الكورس : سلام علينا .

رئيس الكورس: لم يقع للمدينة النائمة شيء .

الكورس : سلام علينا .

رئيس الكورس: لم يقع شيء حتى الآن ..

الكورس : سلام علينا .

(تتناهى إلى الأسماع أصوات ضجيج المرور وآلات تنبيه السيارات والترام)

رئيس الكورس: والإنسان
عندما يفكر ويتدبر ما يرى
يكون واعياً ماهراً قادراً على مجابهة كثير من الأخطار .
إذ يلحظ بعقل نبيهٍ
دلائل الكارثة
قبل فوات الأوان .. عندما يشاء .

الكورس : وماذا تكون الحال إذا هو لم يشأ ؟

رئيس الكورس: إذا هو قرأ الصحف
ليعرف أخبار الخطر الوشيك
كل يوم ساعة الإفطار ،
وهاج وماج لحدثٍ بعيد
إنه يتلقى كل يوم فيما يقرأ تعليقات
توفر عليه التفكير .. فلا يفكر هو بذاته
ويعرف اليوم ما قد جرى بالأمس ،
فهو لا يستطيع إلا على نحو عسير
أن يفهم حقيقة ما يجرى
تحت سقف بيته هو .

الكورس : ما لم تنشره الجرائد .

رئيس الكورس: وهو واضح كل الوضوح .

الكورس : عجيب غاية العجب .

رئيس الكورس: واقعى تمام الواقعية .

الكـورس : إنه يكره أن يعرف حقيقته ، لأنه لو عرفها .

(رئيس الكورس يقطع كلام الكورس بحركة من يده)

رئيس الكورس: ها هو ذا قد أتى .

(يتجه الكورس إلى الناحية الأخرى)

الكـورس : لم يحدث شيء للمدينة النائمة
اليوم مثل الأمس ،
وحتى ينسى الخطر الداهم
يرتمى المواطن ،
حليق الذقن ناعم الخدّ ،
فى بحر التجارة .

(يظهر بيدرمن مرتديا المعطف والقبعة ومتأبطا الحقيبة)

بيـدرمن : تاكسى ؟ تاكسى ؟ تاكسى ؟

(الكورس يقف فى طريقه)

ماذا تريدون ؟

الكـورس : آه !

بيـدرمن : ماذا تريدون ؟

الكـورس : آه !

بيـدرمن : لقد قلتم ذلك من قبل .

الكـورس : آه ثم آه ثم آه ! ثلاث مرات .

بيـدرمن : لماذا ؟

رئيس الكورس: شيء يثير الشك كل الشك .
فيما يبدو لنا
شيء سريع الالتهاب تَكَشَّفَ
لأبصارنا ولبصرك .
فكيف أفسره ؟
براميل مليئة بالوقود فوق هامة البيت .

(بيدرمن يصيح)

بيدرمن : ليس هذا من شأنكم .

(صمت)

دعونى أمرّ – لابد أن أذهب إلى محامٍ – ماذا يريدون منى ؟ أنا برىء ..

(يبدو بيدرمن على هيئة من تملكه الخوف)

هل هذا تحقيق يجرى معى ؟

(يبدو بيدرمن على هيئة المطمئن اطمئنان السادة)

دعونى أمر ، هه .

(الكورس يقف ثابتاً لا يتحرك)

الكورس : لا يليق بالكورس قط .
أن يقوم قاضياً على مواطنين ممن يعملون .

رئيس الكورس: الكورس ينظر إلى الأشياء من الخارج – ذلك شأنه –
وهو لهذا يفهم على نحو أيسر ، ويتبين الخطر الداهم .

الكورس : متسائلاً فى أدب فقط ،

وسط الخطر الذى يثير فينا الفزع
محذراً فقط ، آه ، ثابتاً ، والعرق يتفصّد منه بارداً ،
يقترب الكورس على النحو المعروف ،
فى وعى وعجزٍ معاً ، وبمؤازرة المواطن للمواطن
حتى يفوت أوان إطفاء الحريق ،
مثلما يفعل رجال فرقة الإطفاء .

(ينظر بيدرمن إلى ساعة يده)

بيدرمن : أنا مستعجل .

الكورس : آه !

بيدرمن : إننى فى الحقيقة لا أعرف ماذا تريدون .

رئيس الكورس: لقد سكتٌّ على البراميل ذات الوقود ،
يا جوتليب بيدرمن ، فما تفسيرك لذلك ؟

بيدرمن : تفسيرى ؟

رئيس الكورس: أنت تعرف أن العالم ملتهبٌ ، قابل للاشتعال
يا جوتليب بيدرمن ، فماذا فكرت ؟

بيدرمن : فكرت ؟

(يستعرض الكورس)

إننى ، يا أيها السادة ، مواطنٌ حر . ولى أن أفكر فيما أشاء . فماذا تريدون بهذه الأسئلة ؟ إن لى الحق ، يا أيها السادة ، فى أن أمتنع عن التفكير كل الامتناع – هذا بغضّ النظر ، يا أيها السادة ، عن أن ما يجرى ، يجرى تحت سقف بيتى – فأنا بعد

كل شيء ، وفي النهاية ، وفي آخر المطاف ، مالك البيت – لابد أن أقول لكم هذا .

الكورس : تقدّست يا ذاتَ القدسية
أنت أيتها الملْكيةَ
مهما ينجم عنك ويتأتى منك
مما يستحيل إطفاؤه كل الاستحالة
ثم يحرقنا جميعا فإلى فحمٍ نصير :
تقدست يا ذات القدسية .

بيدرمن : هكذا !

(صمت)

لماذا لا تدَعوني أمر ؟

(صمت)

لا ينبغي على المرء أن يفكر دائماً في أقبح الاحتمالات . إلام تنتهي حالنا لو فكرنا دائمًا في أقبح الاحتمالات ؟ أنا أريد راحتي وسلامي ، ولا أريد شيئاً آخر ، أما موضوع الرجلين – فعلى الرغم من أنني الآن مشغول بهموم أخرى .

(تظهر بابيتّه مرتدية المعطف والقبعة)

ماذا تريدين هنا ؟

بابيتّه : هل أسبب لك إزعاجاً ؟

بيدرمن : أنا مشغول بمحادثات تجرى بين الكورس وبيني .

(بابيتّه تومىء برأسها إلى الكورس ، ثم تهمس فى أذن بيدرمن)

بيدرمن : طبعاً بشريط وربطة وعقدة . التكاليف لا تهمني ، الذى يهمني هو أن يكون إكليلاً من الزهور .

(تومىء بابيتّه إلى الكورس برأسها)

بابيـتّـه : لا مؤاخذة يا حضرات السادة .

(تبتعد)

بيـدرمن : سأقول لكم كلمة واحدة ، باختصار ، يا حضرات السادة ، لقد فاض بى الكيل . يا لكم ولحديثكم الذى لا ينتهى عن مشعلى الحرائق . لقـد فـاض بى الكيل لدرجـة أننى لـم أعـد أذهب إلى مائدتى المعهودة فى أية حانة . ألـم يعد لدى الناس فى أيامنا هذه موضـوع آخر للحديث سوى هذا الموضوع ؟ وإذا كنا سنعتبر كل إنسـان – باستثنائنا نحن طبعـاً – يا سـاتر ، يا حفـيظ من مشعلى الحرائق ، فكيف يمكن أن تتحسن الأحوال ؟

يا مـغـيث ! يا هو . لابد للإنسـان من شىء من الثـقـة ! لابد للإنسان من شىء من النية الطيبة ! هذا هو رأيى ، لا ينبغى أن يرى الإنسان الشر وحده دون ما سواه ، يـا ساتر ، يا حفيظ ، يا مغيث ، يا هو ! ليس كل إنسان من مشعلى الحرائق ، هذا هو رأيى . شىء من الثقة ، شىء من الـ ..

(فترة)

لا يمكن أن أخاف طوال الوقت .

(فترة)

أنتم تقـصـدون مـا حـدث فى هذه الليلة ، فـهل تظنون أننى أغمضت عينا واحدة ؟ أنا لست من البلهاء يا حضرات السادة . بنزين يعنى بنزين . لقـد قلبت فى ذهنى أشق الأفكار وأعسـرها .. وطلعت فوق المنضـدة ، ووقفت عليها مرهفًا السمع أتصنت على ما يجرى، فوقى ، ثم طلعت بعد ذلك فوق الدولاب ، حتى ألصق أذنى على سقف الحجرة ، إلى هذا الحد . طبعـاً كـانا

نائمين يشخران ، نعم كانا يشخران ، طلعت فوق الدولاب أربع مرات على الأقل ، كانا يشخران فى سلام وأمان وسكينة . ولكنى لم أكتف بهذا . لقد ذهبت مرةً إلى بير السلم ، ووقفت فى بير السلم ، وأنا أرتدى – ولكم أن تصدقوا أو لا تصدقوا – وأنا أرتدى البيچاما من شدة غضبى ، من فرط غيظى ، بل لقد أوشكت على أن أوقظ الصعلوكَين ، وعلى أن ألقى بهما إلى قارعة الطريق – مع براميلهما كلها ! – بيدى هذه ، وفى غير رحمة ، فى جوف الليل .

الكورس : بيديك ؟

بيدرمن : نعم .

الكورس : بلا رحمة .

بيدرمن : نعم .

الكورس : فى جوف الليل .

بيدرمن : أوشكت على هذا ، نعم ، لولا أن زوجتى أتت إلىّ لأنها خافت أن أُصاب بالبرد . كنت على وشك .

(يتناول سيجارًا من فرط ارتباكه)

رئيس الكورس: أقول مرة أخرى : بماذا أفسر الحال .
لقد أمضى الليلة ساهرًا لا تغمض له عين .
أما أن الرجلين يسيئان استغلال طيبة المواطن
فهل ترون ذلك يا تُرى أمرًا جديرًا بالتفكير ؟
لقد تملكته الحماقة .. لماذا ؟

(بيدرمن يشعل سيجاره)

الكورس : الحق أن رجل المال والأعمال يحيا حياة صعبة .
ونعنى بالذات ذلك الذى تظهر فى التجارة قسوتهُ
وله فيما عداها روح البشر
فهو المستعد عن طيب خاطر
لفعل الخير .

رئيس الكورس: حيث يجد أن فعل الخير يناسبه ، وفى صالحه .

الكورس : ويخطىء خطأ خطيراً
مَنْ يأمل فى الخير
الذى يصدر عن حسن النية و طيب الطوية .

بيدرمن : ماذا تريدون بهذا قولاً ؟

الكورس : كل ما فى الأمر أننا ظننا رائحة البنزين قد فاحت .

(بيدرمن يشمشم)

بيدرمن : فأنا إذن يا أيها السادة لا أشم شيئاً .

الكورس : آه لنا !

بيدرمن : لا أشم شيئاً على الإطلاق .

الكورس : آه لنا !

رئيس الكورس: لقد اعتاد على الرائحة الكريهة فلم يعد يشمها .

الكورس : آه لنا !

بيدرمن : ما بالكم تعودون دائمًا إلى هذه الانهزامية ، أيها السادة ،
فتكررون وتعيدون : آه لنا .

(يأتى إلى السمع صوتُ نفير سيارة)

تاكسى ! – تاكسى !

(يأتى إلى السمع صوت سيارة تقف)

بعد إذنكم .

(بيدرمن يهرول بعيداً)

الكورس : أيها المواطن – إلى أين ؟

(يتناهى إلى السمع صوت سيارة تنطلق)

رئيس الكورس: عَلاَمَ عقد النية الآن هذا المنحوس ؟
لقد لاح لى خائفا مرتبكاً شاحباً ؛
إذ لاذ بالفرار
مصمماً فى خوفٍ على شىء : ما هو ؟

(يأتى إلى السمع صوت نفير سيارة)

الكورس : لقد اعتاد على الرائحة الكريهة .

(صوت نفير السيارة أصبح بعيداً)

آه لنا !

رئيس الكورس: آه لكم !

(الكورس يخطو إلى الوراء ، إلا رئيس الكورس الذى يتناول غليونه)

رئيس الكورس: ما الذى يستطيع فعله
مَنْ يخشى التغير
أكثر من خشيته الكارثة ؟ .
لدرء الكارثة ؟

(يتبع الكورس)

المشهد الرابع

السندرة

(أيزينرينج بمفرده ، يعمل ، يحل خيطاً من الكبسولة ، ويصفر فى أثناء ذلك لحن لِيلى مارلين . يقطع صفيره ليبلل إصبع السبابة بريقه ، ثم يخرج إصبع السبابة من الطاقة ليختبر شدة الريح .)

الحجرة :

(يدخل بيدرمن ومن ورائه بابيتّه ، بيدرمن يخلع المعطف ويلقى الحقيبة ، أما السيجار فيظل بين شفتيه .)

بيدرمن : افعلى ما قلت لك .

بابيتّه : قلت أوزة ؟

بيدرمن : نعم أوزة .

(يخلع الكرافتة والسيجار لايزال بين شفتيه)

بابيتّه : لماذا تخلع الكرافتة ياجوتليب ؟

(يعطيها الكرافتة)

بيدرمن : إذا أبلغت الشرطة عنهما ، عن الرجلين ، فإننى أجعلهما يقيناً عدواً لى . وما هى الفائدة التى تعود علينا ؟! إنهما يستطيعان بعود كبريت واحد – عود كبريت واحد – أن يشعلا النار في بيتنا كله حالاً وما هى الفائدة التى تعود علينا ؟ أما إذا صعدت إليهما ودعوتهما – إذا قبلا دعوتى ..

بابيتّه : فماذا تكون النتيجة ؟

بيدرمن : سنكون أصدقاء .

(يخلع سترته ويعطيها لزوجته ويذهب)

بابيتّه : ليكن فى علمك ، يا أنّه ، أنك لن تغادرى البيت مساء اليوم لأننا ننتظر ضيوفا . أعدى المائدة من فضلك لأربعة أشخاص .

السندرة

(أيزينرينج يغنى أغنية ليللى مارلين . يقرع أحدهم الباب .)

أيزينرينج : ادخل .

(يستمر فى تصغير اللحن ، ولكن أحدا لا يدخل)

(يدخل بيدرمن وقد شمر كمّيه وأمسك السيجار بيده)

صباح الخير يا سيد بيدرمن .

بيدرمن : تسمح لى .

أيزينرينج : كيف نمت هذه الليلة ؟

بيدرمن : شكراً ، نمت نوماً رديئاً ، دونه نوم البؤساء .

أيزينرينج : وأنا أيضاً ، هذه أيام الخماسين .

(يستمر فى العمل بالخيط والكبسولة)

بيدرمن : لا أريد أن أعطلك .

أيزينرينج : العفو يا سيد بيدرمن ، أنت هنا فى بيتك .

بيدرمن : ولا أريد أن أحشر نفسى .

(يتناهى إلى السمع صوت هدير الحمام)

وأين صديقنا ؟

أيزينرينج : تقصد يويو ؟ إنه يؤدى عمله. يا له من كلب كسول ! تصور .. إنه لم يكن يريد الخروج إلا بعد تناول الفطور . لقد أرسلته ليحضر قشاً .

بيدرمن : ليحضر قشا ؟ !

أيزينرينج : لأن القش يحمل الشرر إلى أبعد مدى .

(بيدرمن يضحك فى أدب وكأنه يضحك من نكتة خفيفة)

بيدرمن : ماذا كنت أريد أن أقول يا سيد أيزينرينج .

أيزينرينج : ربما كنت تريد أن تقول إنك تريد أن تلقى بنا إلى قارعة الطريق ؟

بيدرمن : فى جوف الليل .. كانت حبوبى المنوّمة ، لعلمك ، قد فرغت كلها عندما خطر ببالى أنه ليس لديكم هنا فوق مرحاض يا حضرات السادة .

أيزينرينج : لدينا المزراب المتدلى من السطح .

بيدرمن : على راحتكم ، يا حضرات السادة ، على راحتكم . كل ما فى الأمر أن موضوع المرحاض خطر ببالى ، وشغلنى طوال الليل . ولعلكما تريدان استعمال الحوض أو الدش . يمكنكما ، إن شئتما استخدام حمامى الخاص . وقد قلت لأنّه أن تضع فوطاً نظيفة لكما .

(أيزينرينج يهز رأسه)

لماذا تهز رأسك ؟

أيزينرينج : أين وضعها يا ترى ؟

بيدرمن : وضع ماذا ؟

أيزينرينج : هل رأيت كبسولة الإشعال ؟

(يبحث هنا وهناك)

لا تشغل بالك يا سيد بيدرمن بموضوع الحمّام . صَدِّقنى السجن ؟

بيدرمن : ولعلك تعرف أن السجن كذلك لم يكن به حمّام .

أيزينرينج : ألم يحكِ لك يويو أننى أنا أيضاً قادم من السجن ؟

بيدرمن : لا .

أيزينرينج : ألم يشر إلى ذلك بكلمة واحدة ؟

بيدرمن : لا .

أيزينرينج : إنه يتحدث دائماً عن نفسه فقط . هناك أناسٌ من هذا النوع : لا يتحدثون إلا عن أنفسهم فقط . ولكن ما شأننا نحن . إذا كان قد تعذّب فى صباه ؟ هل تعذبتَ أنت يا سيد بيدرمن فى صباك ؟ أنا : لا . كان فى مقدورى أن أدرس فى الجامعة ، وأبى كان يريد لى أن أصبح من رجال القانون .

(يقف عند الطاقة ويتكلم مع الحمَام)

(جور .. جور ... جور★ .)

(بيدرمن يشعل سيجاره مرة أخرى)

بيدرمن : أنا يا سيد أيزينرينج لم أنم طوال الليل ، هل فى هذه البراميل بنزين ، قل لى بصراحة ؟

أيزينرينج : أنت إذن لا تثق فينا ؟

بيدرمن : أنا أسأل مجرد سؤال .

أيزينرينج : ما هو رأيك فينا يا سيد بيدرمن ، بصراحة : ماهو رأيك بالضبط فينا ؟

بيدرمن : لا يصح يا صديقى أن تظن أننى لا أفهم المداعبة ، ولكن طريقتكم فى المزاح طريقة لابد أن أقول إنها ..

★ صوت كلام أيزينرينج مع الحمام .

أيزينرينج : هذا شيء تعلمناه .

بيـدرمن : ما هذا الذى تعلمتموه ؟

أيزينرينج : إن المزاح يحتل المركز الثالث بين وسائل التمويه الممتازة . أما المركز الثانى فتحتله النواحى العاطفية : الكلام الذى يحكيه صديقنا يويو عن طفولته بين الحطّابين فى الغابة ، وملجأ الأيتام والسيرك وما إلى هذا وذاك . أما طريقة التمويه الأكيدة التى لا تدانيها طرق أخرى فهى فى رأيى الحقيقة الصريحة المجردة . شيء غريب ! شيء مضحك ! الحقيقة الصريحة المجردة لا يصدقها أحد !

الحجـرة :

(أنّـه تقتاد الأرملة كنيشتلينج التى تلبس السواد إلى داخل الحجرة)

أنّـــه : تفضلى ، اجلسى .

(الأرملة تجلس)

ولكن إذا كنت أنتِ زوجة كنيشتلينج ، فلن تَصلى إلى شىء ، فقد قال السيد بيدرمن إنه لا يريد أن تكون له بكِ أية صلة .

(تنهض الأرملة)

تفضلى ، اجلسى .

(الأرملة تجلس)

ولكن لا تمنّى نفسك بشيء .

(أته تخرج)

السندرة

(أيزينرينج يقف ويحرك يديه ببعض الأعمال وبيدرمن يقف ويدخن)

أيزينرينج : لقد تأخر صاحبنا يويو طويلاً . أين هو يا ترى . ليس إحضار القش عمليةً صعبة . عسى ألا يكونوا التقطوه ؟

بيدرمن : التقطوه ؟

أيزينرينج : ما الذى يُضحك فى هذا ؟

بيدرمن : إنك يا سيد أيزينرينج عندما تتحدث على هذا النحو تلوح لى كأنك أتيت من عالم آخر. التقطوه ؟ كلمة أراها خلابة ، رائعة . كأنك أتيت من عالم آخر . ولعلك تعرف أنه من النادر أن يلتقطوا واحداً من محيطنا .

أيزينرينج : لأن الناس فى محيطكم لا يسرقون قشّاً ، هذا شيء واضح ياسيد بيدرمن ، وتلك هى الفروق الطبقية .

بيدرمن : كلام فارغ .

أيزينرينج لعلك لا تريد أن تقول يا سيد ببدرمن إن ..

بيدرمن : أنا لا أؤمن بفوارق طبقية ، ولابد أنك يا أيزينرينج قد شعرت بذلك ، أنا لست من الطراز القديم . على العكس ، إننى أشعر

بخالص الأسى لأن الناس فى الطبقات الدنيا بالذات لا يكفون عن الثرثرة عن الفروق الطبقية . ألسنا اليوم جميعاً ، فقراء وأغنياء ، خلق الخالق ذاته ؟ والطبقة الوسطى أيضاً . ألسنا ، أنت وأنا ، بشراً من لحم ودم ؟ لا أعرف يا سيدى ، هل تدخن السيجار أنت أيضا ؟

(يقدم إليه سيجارا ولكن أيزينرينج يهز رأسه)

وأنا لست من أنصار التسوية بين الناس بطبيعة الحال ، سيكون هناك فى كل زمان من يتصفون بالمهارة ومن يفتقرون إلى المهارة ، والحمد لله على ذلك ، ولكن لماذا لا نمد أيدينا بعضنا إلى البعض الآخر ؟ إن الأمر لا يحتاج إلا إلى شىء من حسن النية ، سبحان الله يا سيدى ، إلى شىء من المثالية ، شىء من الـــ .. وبهذا ننعم جميعًا بالطمأنينة والسلام ، فقراء وأغنياء، ألا ترى أنت أيضاً هذا الرأى ؟

أيزينرينج : إذا سمحت لى بأن أتكلم بصراحة يا سيد بيدرمن .

بيدرمن : بل أنا أرجوكَ أن تتكلم بصراحة .

أيزينرينج : فإذا تكلمتُ بصراحة تعدنى بألا تحملها محملًا سيئًا ؟

بيدرمن : كلما زدت فى الصراحة كان ذلك أفضل .

أيزينرينج أنا من رأيى — بصراحة — أنه لا ينبغى لك أن تدخن هنا .

(بيدرمن يرتاع ويطفىء السيجار)

ليس من حقى أن أصدر إليك أوامر يا سيد بيدرمن ، فالبيت أولاً وأخيراً بيتك ، ولكنك تفهم .

بيدرمن : هذا شىء بديهى .

(أيزينرينج ينحنى)

أيزينرينج : ها هى ذى .

(يلتقط شيئاً من الأرض وينفخ فيه لينظفه قبل أن يثبت الخيط به – ويعود إلى تصفير لحن لِيللى مارلين)

بيـدرمن : قل لى يا سيد أيزينرينج: ما هذا الذى تعمله طوال الوقت؟ هل تسمح لى بأن أسألك : ما هذا ؟

أيزينرينج : كبسولة الإشعال ..

بيـدرمن : – ؟

أيزينرينج : وهذا هو خيط الإشعال ، الفتيل .

بيـدرمن : – ؟

أيزينرينج : هناك أصناف أفضل من هذا الصنف موجودة حالياً ، على ما يقول يويو . ولكننا لم نعثر عليها فى مخازن الذخيرة ، وليس فى مقدورنا أن نشتريها . كل شيء يتصل بالحرب باهظ الثمن ، وفائق الجودة .

بيـدرمن : هل قلت إن هذا خيط إشعال ؟

أيزينرينج : خيط إشعال من النوع الذى يحدث فرقعة .

(يقدم إلى بيدرمن طرف الخيط)

أمسك هذا الطرف يا سيد بيـدرمن من فضلك ، حتى أتمكن من القياس .

(بيدرمن يمسك الخيط)

بيـدرمن : دعنا من المزاج يا صديقى .

أيزينرينج : لحظة واحدة من فضلك .

(يصفر لحن ليللى مارلين ويقيس خيط الإشعال)

شكراً يا سيد بيدرمن . شكراً جزيلاً .

(بيدرمن لا يستطيع حبس الضحك)

بيــدرمن : لا يا ڤيللى ، أنا لست ممن تستطيع الضحك عليهم ، أنا : لا ! ولكنى لا بد أن أقول لك إنك تعوِّل كثيراً على قدرة الآخرين على فهم النكتة ، كثيراً جداً ، وأنا من السهل أن أتصور أنهم يلقون القبض عليك من حين لآخر عندما تتكلم هذا الكلام ، ليس لجميع الناس ، يا صديقى ، ليس لجميع الناس ما لدىّ مِنْ قدرةٍ على فهم النكت .

أيزينرينج : وينبغى على الإنسان أن يعرف كيف يختار الناس .

بيــدرمن : فالذين يجلسون إلى مائدتى المعهودة فى الحانة على سبيل المثال يتصورون الويلِ والثبور وعظائم الأمور ، يتصورون سدوم وعامورة عندما يقول الإنسان لهم مثلاً إنه يؤمن بما فى البشر من طيبة .

أيزينرينج : يا ..

بيــدرمن : هذا إلى أننى نفحت رجال المطافىء عندنا مبلغاً من المال لا أريد ذكر مقداره .

أيزينرينج: يا ...

(يمد خيط الإشعال)

وقد يخفف عنك أن تعلم أن الناس الذين يفهمون النكتة ينتهون إلى ما ينتهى إليه الآخرون من ضياع عندما يحين الحين .

(بيدرمن لا يستطيع الاستمرار فى الوقوف ، فيجلس فوق برميل والعرق يتفصّد منه)

مـــاذا بـــك يا سيد بيـدرمن ؟ مـاذا بك ؟ ما هذا الشحوب الشديد ؟!

(يربت على كتفه)

أنا أعرف مابك ... هذا هو تأثير هذه الرائحة على من لم يعتد عليها ، رائحة البنزين ، سأفتح نافذة .

(أيزينرينج يفتح الباب)

بيـدرمن : شكراً ....

(أنه تنادى فى بير السلم)

أنّـــه : يا سيد بيدرمن . يا سيد بيدرمن .

أيزينرينج : هل عاد البوليس يا ترى ؟

أنّـــه : يا سيد بيدرمن .

أيزينرينج : فماذا تكون هذه الدولة إن لم تكن دولة بوليسية .

أنّـــه : يا سيد بيدرمن .

بيـدرمن : حاضر .

(يدور الحديث همساً)

يا سيد أيزينرينج ، هل تحب الأوز ؟

أيزينرينج : الأوز ؟

بيـدرمن : الأوز ، نعم ، الأوز .

أيزينرينج : أنا ؟ أحب ؟ لماذا ؟

بيـدرمن : محشواً بأبى فروة .. بالمارون .

أيزينرينج : ومعه الكرنب الأحمر ؟

بيـدرمن : نعم .... لقد أتيت أصلاً لأقول لك ، إننا ، زوجتى وأنا ، وعلى الأخص أنا ، أنا فكرت ، مجرد تفكير ... إذا أحببت ، إذا راقك .... أنا لا أريد أن ألح .. إذا أحببت ، يا سيد أيزينرينج أن تأتى لتناول عشاء لطيف ، أنت وبوبو..

أيزينرينج : اليوم ؟

بيدرمن : هل تفضل غداً ؟

أيزينرينج: أظن أننا لن نكون هنا غداً . أما اليوم فبكل سرور يا سيد بيدرمن ، بكل سرور .

بيدرمن : إذن فسنكون فى انتظاركما فى الساعة السابعة .

(أنّه تنادى فى بير السلم)

أنّــــه : يا سيد بيدرمن .

(بيدرمن يصافح أيزينرينج)

بيدرمن : اتفقنا ؟

أيزينرينج: اتفقنا .

(بيدرمن ينصرف ، ويقف بالباب مرة أخرى ويهز رأسه على نحو ودىّ وهو يلقى نظرة جامدة إلى البراميل وخيط الإشعال)

اتفقنا .

(بيدرمن يخرج ، وأيزينرينج يستمر فى العمل وهو يصفر . يتقدم الكورس وكأن المشهد قد انتهى . ولكن فى اللحظة التى يجتمع فيها الكورس عند حافة المسرح تحدث جلبة فى السندرة : فقد وقع هناك شىء .)

أيزينرينج: يمكنك أن تخرج الآن يا دكتور .

(شخص ثالث يخرج زاحفا من بين البراميل . هذا الشخص يلبس نظارة)

لقد سمعت الحديث . نحن ، يويو وأنا ، مدعوان لتناول طعام العشاء ، أما أنت فستبقى هنا للحراسة . لا تدع أحداً يدخل هنا ويدخن . مفهوم ؟ إلى أن يحين الحين .

(الشخص الثالث يمسح نظارته)

إننى أتساءل أحياناً يا دكتور عما تعمله أنت عندنا أصلاً مادمت لا تحب الحرائق والشرر وألسنة اللهب المضطرمة وأبواق عربات الحريق التى تأتى دائماً بعد فوات الأوان ، ونباح الكلاب ، والدخان وصياح الناس – والرماد .. ولا تتمتع بها .

(الثالث يلبس نظارته . إنه صامت جاد . أيزينرينج يضحك .)

مصلح ! يريد إصلاح أحوال الدنيا !

(يصفر برهة لنفسه دون أن ينظر إلى الدكتور)

أنا لا أحبكم أيها الأكاديميون ، وأنت تعرف ذلك ، ولقد قلت لك على الفور : إن الإنسان لا يجد المتعة فيما تعملون ، فأنتم دائمًا إيديولوچيون ، جادون ، ولا تزالون هكذا حتى يصل الأمر إلـــى الخيانة – لا ، إن الإنسان لا يجد متعة حقيقية فيما تعملون .

(يقوم بأعمالٍ بيديه ويستمر فى الصفير)

الكورس : نحن مستعدون .

الخراطيم بدقةٍ لففناها .

الخراطيم الحمراء ،

وكل شيء حسب التعليمات

يلمع ويبرق ،

وكل بكرة من النحاس الأصفر

زيّتناها بدقة وشحمناها ،

وكل منا يعرف واجبه .

رئيس الكورس: إلا أن الجو للأسف جو خماسينى .

الكورس : كل منا يعرف واجبه .

والمضخة لامعة ولها بريق ، فحصناها بدقة ،

حتى يصل الضغط إلى منتهاه فى المضخة

وهى أيضاً من النحاس الأصفر .

رئيس الكورس: وحنفيات الحريق ؟

الكورس : كل منا يعرف واجبه .

رئيس الكورس: نحن مستعدون .

(تأتى بابيتّه ممسكة بأوزة . كذلك يأتى معها الدكتور المتخصص فى الفلسفة)

بابيتّه : نعم يا دكتور ، نعم ، فهمت يا دكتور ، ولكن زوجى يا دكتور ، نعم إنه موضوع عاجل ، يا دكتور ، موضوع عاجل ، فهمت ، سأقول له .

(تترك الدكتور وتذهب إلى مقدمة المسرح)

زوجى طلب أوزة ، تفضلوا ، هاهى ذى . وطلب إلىّ أن أشويها حتى نصبح وهؤلاء أصدقاء .

(يتناهى إلى السمع صوت أجراس الكنيسة تدق)

هذه هى ليلة الأحد كما تسمعون ، ولست بمستطيعة التخلص من هاجسٍ سخيف يقول لى إن هذه المرة قد تكون هى المرة الأخيرة التى تدق فيها هكذا أجراس مدينتنا ..

(بيدرمن ينادى بابيتّه)

إننى ، أيتها السيدات ، لست مطمئنة إلى أن جوتليب على حق دائماً . لقد قال لى مرة : إن هؤلاء بطبيعة الحال صعاليك ، ولكننى يا بابيتّه إذا ناصبتهم العداء أُعرّض دهان الشعر الذى أنتجه للضياع . وما كاد يدخل عضواً فى الحزب .

(بيدرمن ينادى على بابيتّه مرة أخرى)

هذه هى حاله دائماً . إننى أعرف زوجى جوتليب تمام المعرفة . هذه هى حاله دائماً .قلبه طيب أكثر مما ينبغى ، آه ، قلبه طيب أكثر مما ينبغى .

(بابيتّه تنصرف ومعها الأوزة)

الكورس : رجل يلبس نظارة ،
سليل بيت طيب على الأرجح ،

لا يعرف الحقد ،
ولكنه واسع الاطلاع ، على ما يبدو ، وشاحب الوجه .
لم يعد يأمل على الإطلاق فى أن يتفتق الخير
عن طيبة القلب ،
فعزم على القيام بأى عمل ؛
لأن الغاية (على ما يأمل) تبرر الوسيلة
آه !
إنه هو الآخر يأمل ... آخذاً بالطيبة وبغير الطيبة معا .
ينظف النظارة حتى يكون بعيد النظر ،
فلا يرى فى البراميل المليئة بالوقود
وقوداً .
إنه يرى الفكرة ويظل هكذا
حتى تتأجج النيران .

الدكتور : مساء الخير .

رئيس الكورس: إلى الخراطيم هيّا .
إلى المضخة .
إلى السلالم .

(يجرى رجال المطافىء إلى أماكنهم)

رئيس الكورس: مساء الخير .

(إلى الجمهور بعد أن تناهت إلى أسماعه صيحات الاستعداد من كل مكان)

نحن مستعدون .

المشهد الخامس

الحجرة

(أرملة كنيشتلينج لا تزال بالحجرة ، واقفة . تأتى إلى السمع أصوات الأجراس تدق عالية جداً . أنّه تعد المائدة وبيدرمن يأتى بكرسيين وثيرين)

بيدرمن : ولما لم يكن لدىّ وقت ، كما ترين يا مدام كنيشتلينج ، أقول : لما لم يكن لدى وقت للاهتمام بالموتى، إذا صح هذا التعبير ، فعليك أن تذهبى إلى محاميّ.

(أرملة كنيشتلينج تتصرف)

إن الإنسان لا يسمع الكلمات التى ينطق بها ، يا أنّه أقفلى النافذة .

(أنّه تقفل النافذة ، دقات الأجراس تخفت)

أنا قلت لكم : عشاء بسيط خفيف فى جو ودىّ أليف ، فما معنى هذين الشمعدانين السخيفين .

أنّه : إننا نستخدمهما دائماً يا سيد بيدرمن .

بيدرمن : أنا أقول وأكرر : عشاء بسيط خفيف فى جو ودّى أليف ، كل شىء إلا الأبّهة . يا للمصيبة ! آنية للماء ! وما هذه القواعد التى تحمل السكاكين ، كل شىء من الفضة ، كل شىء من الفضة والكريستال ، لا شىء غير الفضة والكريستال . ماذا سيكون الانطباع الذى تُحدثه هذه الأشياء ؟ !

(يجمع قواعد السكاكين ويدسّها فى جيب بنطلونه)

إنك ترين يا أنّه أننى لبست أقدم سترة عادية عندى ، أما أنت ... يمكنك أن تَدَعى هنا سكين تقطيع الطيور الكبيرة ، يا أنّه ، فسنحتاج إليها ، أما كل ما عداها ، فأبعديه . أبعدى الفضة كلها ، لا بد أن أن يحس الرجلان كأنهما فى بيتهما .. أين بريمة فتح الزجاجات ؟

أنّــه : ها هى ذى .

بيدرمن : أليس لدينا بريمة أبسط من هذه ؟

أنّــه : عندنا فى المطبخ بريمة أخرى ولكنها صدئة .

بيدرمن : أحضريها .

(يرفع من المائدة دلواً فضياً)

ماذا يعمل هذا الدلو هنا ؟

أنّــه : للنبيذ .

بيدرمن : من الفضة .

(يحملق فى الدلو ثم فى أنه)

هل كان هذا الدلو عندنا دائماً ؟

أنّــه : إننا نحتاج إليه يا سيد بيدرمن .

بيدرمن : نحتاج إليه ! ما معنى نحتاج إليه ؟ إنما نحتاج إلى الإنسانية ، إلى الأخوّة . أبعديه – يا للمصيبة . وما هذه أيضاً ؟

أنّــه : فوط سفرة !

بيدرمن : من قماش الداماست ، الغالى .

أنّــه : ليس لدينا غيرها .

(يجمع الفوط ويدسها فى الدلو الفضى)

بيـدرمن : هناك أمم بأسرها تعيش بدون فوط سفرة ، أناس مثلنا ـ

(تدخل بابيتّه حاملة باقة كبيرة من الزهور ، لا يلحظها بيدرمن على الفور ، لا يزال أمام المائدة)

بل إننى أتساءل عن مفرش السفرة ، فيم نحتاج إليه ـ

بابيـتّـه : يا جوتليب ؟

بيـدرمن : كل شىء إلا الفروق الطبقية .

(يرى بابيتّه)

وما هذا الإكليل ؟

بابيـتّـه : إنه الإكليل الذى طلبناه من محل الزهور . تصوّر يا جوتليب أنهم أرسلوه إلينا هنا . أرسلوه إلى هنا على الرغم من أننى كتبت لهم العنوان بنفسى ، عنوان كنيشتلينج ، كتبته واضحاً كل الوضوح ، لقد عكسوا كل شىء ، الشريط عكسوه ، وكل شىء عكسوه .

بيـدرمن : الشريط ، كيف ذلك ؟

بابيـتّـه : بل إنهم ، كما قال الصبى الذى أحضر الإكليل ، أرسلوا ورقة الحساب إلى زوجة كنيشتلينج .

(تريه الشريط)

« إلى روح المرحوم جوتليب بيدرمن الذى لن ننساه أبد الدهر » .

(يتأمل الشريط)

بيـدرمن : لا يمكن أن نقبل هذا الكلام ، لا يمكن . لابد أن يغيروه ـ

(يعود إلى المائدة)

أرجوك يا بابيتّه لا تثيرى أعصابى الآن فأنا مشغول بأمورٍ أخرى . يا حفيظ ! يا رب ! ليس فى إمكانى أن أكون فى كل مكان فى وقت واحد.

(بابيته تنصرف بالإكليل)

إذن فلنرفع المفرش . ساعدينى يا أنّه ، هه . وكما قلت لك . لا تدورى بالطعام على الجالسين ، ولا تتصرفى على نحو متكلف معقد . بل ادخلى بكل بساطة ، وبدون أن تقرعى البـــاب ، ادخلى بكل بساطة، على سجيتك، وضعى الطاسة على المائدة ؟

أنّـــــه : الطاسة ؟

(يرفع مفرش المائدة)

بيـدرمن : الجو تغير فى لمح البصر . ما رأيك ؟ منضدة خشبية، ولا شىء غيرها، ، مثل منضدة العشاء الأخير .

(يعطيها المفرش)

أنّـــــه : وما هو النبيذ الذى تحب أن أحضره يا سيد بيدرمن ؟

بيـدرمن : سأحضره أنا بنفسى .

أنّـــــه : يا سيد بيدرمن .

بيـدرمن : ماذا تريدين ؟

أنّـــــه : ليس عندى بلوفر بالشكل الذى وصفته لى يا سيد بيدرمـــن ، « بلوفر » بسيط يظن من يرانى أرتديه أننى من أفراد الأسرة .

بيـدرمن : خذى « بلوفر » من دولاب زوجتى .

أنّـــــه : هل آخذ الأصفر أم الأحمر ؟

بيـدرمن : المهم ألا يبدو عليك التعقيد والتكلف . لا أريد هذه الطاقية التى على رأسك ولا المريلة التى حول وسطك . مفهـوم ؟ وأبعدى عنى هذين الشمعدانين ، كما قلت لكِ من قبل ، وتصرفى بصفة عامة يا أنّه فى الحجرة حتى لا تبدو مَنظمة مرتبة . سأنزل الآن إلى مخزن النبيذ أسفل البيت .

(بيدرمن ينصرف)

أنّــــه : « تصرفى فى الحجرة حتى لاتبدو منظمة مرتبة » .

(تلقى بمفـرش السفـرة بعد أن طوته فى ركن من الأركـان وتدوسـه بقدميها)

أنّــــه : تفضل !

(يدخل شميتس وأيزينرينج وكل منهما يمسك فى يده وردة)

الاثـنـان : مساء الخير يا آنسة.

(أنه تخرج دون أن تنظر إليهما)

أيزينرينج : لماذا لم تجد قشاً ؟

شميتس : لأنهم صادروه ، بأمر الشرطة ، كإجراء وقائى . وهم يعتقلون من يشترى أو يحوز قشاً ، دون تصريح من البوليس .. إجراء وقائى فى الدولة كلها .

(يمشّط شعره)

أيزينرينج : ألا يزال معك بعض أعواد الثقاب ؟

شميتس : لا .

أيزينرينج : ولا أنا .

(شميتس ينفث فى المشط لينظفه)

شميتس : لا مفرّ من أن نرجوه أن يعطينا بعض أعواد الثقاب .

أيزينرينج : بيدرمن ؟

شميتس : ولا يصح أن ننسى .

(يدسّ المشط فى جيبه ويشمشم حواليه)

الله ! رائحة الطعام الذكية .

(بيدرمن يتقدم إلى صدرالمسرح حاملاً زجاجات نبيذ بين ذراعيه)

بيـدرمن : يمكنكم يا حضرات السادة أن تظنوا بى ما تشاءون من الظنون . ولكن أجيبوا على سؤال واحد أوجهه الآن اليكم .

(تتناهى إلى السمع صيحات مختلطة وضحكات)

إننى أقول فى نفسى إنهم طالما استرسلوا فى الصخب والسكْر فلا يقـدمون على فعل أشياء أخرى .. من كان يصـدق أننى أقـدّم إليهما أفضل ما فى مخزونى من أنواع النبيذ ؟!

لو قال لى هذا أحد من الناس قبل أسبوع ، ماذا كنت أظن به . صارحونى بالحقيقة ، منذ متى (بالضبط) تعرفون أيها السادة أنهـما من مشعلى الحرائق ؟ هذه المعرفة لا تأتى هكذا دفعة واحدة ، كما تظنون يا حضرات السادة ، بل تأتى ببطء وفجاءة ... أما الشك ، أما الشك فقـد ساورنى على الفـور يا حضـرات السـادة ، والشك يسـاور الإنسـان دائمًا - ولكنى أطالبكم بأن تقـولوا لى الحقيـقـة : مـاذا كنتم ستفعلون بربكم لو كنتم فى مكانى ؟ ومتى ؟

(يُرهف السمع . السكون مطبق)

لابد أن أصعد إليهما .

(ينصرف مسرعًا)

المشهد السادس

الحجرة

(وليمة الأوزة على أشدها ، ضحكات وبخاصة من بيدرمن الذى لا يزال يحمل زجاجات النبيذ . إنه يضحك بشدة للنكته التى قيلت ، ولا يستطيع تمالك نفسه من فرط الضحك . بابيتّه هى الوحيدة التى لا تضحك على الإطلاق)

بيدرمن : كنسة الخياط ! هل سمعت ماذا قال؟ لقد قال: كنسة الخياط ، قال إن كنسة الخياط تشتعل أفضل من القش .

بابيتّه : ولماذا تراها نكتة ؟

بيدرمن : إنه يقول كنسة الخياط ألا تعرفين ما هى كنسة الخياط ؟

بابيتّه : أعرفها : الخيوط والقصاصات التى يرميها الخياط.

بيدرمن : أنت لا تفهمين النكت يا حبيبتى !

(يضع الزجاجة على المائدة)

ماذا يفعل الإنسان يا أصدقائى إذا كان هناك من لا يفهم النكت ؟

بابيتّه : اشرح لى النكتة .

بيدرمن : أشرحها لك ، فيللى قال لى صباح اليوم أنه أرسل يويو ليسرق قشًا ، طبعا أنت تفهمين ما هو القش ؟ ولقد سألت أنا الآن

يويو : ما هى أخبار القش ؟ فردّ علىّ بقوله : إنه لم يستطع الحصول على قش فأحضر بدلاً منه كنسة الخياط . هل فهمت ؟ والأدهى من ذلك أن ڤيللى قال : إن كنسة الخياط تشتعل أحسن من القش بكثير .

بابيتّه : كل هذا فهمته .

بيدرمن : نعم ؟ كل هذا ؟

بابيتّه : وما هى النكتة فى هذا ؟

(بيدرمن يتركها وشأنها)

بيدرمن : هيا بنا نشرب أيها السادة !

(بيدرمن يفض سدادة الزجاجة)

بابيتّه : هل صحيح يا سيد شميتس أنكم أحضرتم كنسة الخياط ووضعتموها فى السندرة ؟

بيدرمن : بل أقول لك ما ستضحكين منه يا بابيتّه ، لقد اشتركنا قبل ظهر اليوم ،ڤيللى وأنا ، فى قياس خيط الفتيل .

بابيتّه : خيط الفتيل ؟

بيدرمن : وهو خيط فتيل من النوع الذى يحدث فرقعة .

(يملأ الكؤوس)

بابيتّه : هيا بنا الآن يا حضرات السادة نتكلم كلاماً جاداً : ما معنى هذا كله ؟

(بيدرمن يضحك)

بيدرمن : كلاماً جاداً ! إنها تقول : كلامًا جاداً ! هل سمعتم ماذا قالت؟ الكلام الجاد .. هو ألا تنخدعى يا بابيتّه ، ألا تدعى أحداً يسخر منك ، فإن أصدقاءنا لهم طريقتهم الخاصة فى المزاح .. وأنا

أقول دائمًا كل شيخ له طريقة ، وكل طائفة من الطوائف لها أسلوبها فى النكت والطرائف . لم يعد باقيًا من نكت أصحابنا هؤلاء إلا أن يرجونى أحدهم أن أعطيه أعواد الثقاب .

(شميتس وأيزينرينج يتبادلان نظرة)

أصل الموضوع أن السيدين لا يزالان يعتبراننى من محدثى النعمة الخوافين الذين لا يفهمون المزاح ، ويريدان ، افهمى قصدهم الحقيقى يا سيدتى ، يريدان أن يدخلا الروع فى نفسى .

(يرفع كأسه)

فى صحتكم .

أيزينرينج : فى صحتك .

شميتس : فى صحتك .

(يتقارعون الكؤوس)

بيدرمن : فى صحة صداقتنا .

(يشربون ويعودون إلى الجلوس)

إننا يا سادتى لا نحمل الطعام فى بيتنا إلى كل شخص ، كل واحد يمد يده بكل بساطة .

شميتس : لقد أكلت كثيراً ولا أستطيع المزيد .

أيزينرينج : لا تخجل ، فأنت لست هنا فى ملجأ الأيتام يا يويو . لا تخجل .

(يأخذ قطعة من الأوزة)

إن أوزتك يا سيدتى ممتازة ، أوزة من الطبقة الراقية .

بابيتّه : يسرنى أنَ اسمع منك هذا .

أيزينرينج : أوزة ونبيذ فرنسى أحمر « بومار » وليمة عظيمة لابد لها فى الحقيقة من مفرش سفرة .

بابيتّه : هلِ سمعت يا جوتليب ؟

أيزينرينج : وإنْ لم يكن ضرورياً .. آه مفرش سفرة أبيض ، يا سلام ، مصنوع من القماش الدمشقى ، تصطف فوقه ملاعق وشوك وسكاكين من الفضة .

بيدرمن : أنّه .

أيزينرينج : مفرش سفرة من القماش الدمشقى ، المزخرف بالورد ، الورد الأبيض الذى يشبه قطرات المطر عندما تتجمد على صفحة زجاج النافذة فى يوم من أيام الشتاء ، وإن لم يكن هذا ضرورياً يا سيد بيدرمن ، ليس ضروريا . فلم يكن لدينا فى السجن مفرش سفرة .

بيدرمن : أنّه .

بابيتّه : فى السجن ؟

بيدرمن : أين هى يا ترى ؟

بابيتّه : هل كنت فى السجن ؟

(أنّه تأتى ، ترتدى ، بلوفر ، أحمر قانى)

بيدرمن : هاتِى مفرش سفرة حالاً .

أنّــــه : حالاً !

أيزينرينج : وإذا كان لديكم شىء كآنية الماء التى يغسلون فيها أطراف أصابعهم ..

أنّــــه : حالاً !

أيزينرينج : لعلك تجدين تصرفنا هذا تصرفًا صبيانيًا يا سيدتى ، ولكننا أناسِ من عامة الشعب . يويو مثلاً ، الذى نشأ بين الحّطابين ولم يرَ فى حياته قاعدة سكنية ، وحلم حياته المُضيّعة هو أن يرى مثل هذه المائدة وعليها الفضة والكريستال .

بابيتّه : لدينا كل هذه الأشياء يا جوتليب .

أيزينرينج : ليس ضرورياً .

أنّه : تفضلوا .

أيزينرينج : وإذا كان لديك يا آنسة فوط سفرة فهاتيها .

أنّه : ولكن السيد بيدرمن قال

بيدرمن : هاتيها .

أنّه : تفضلوا .

(أنّه تأتى بكل شىء كانت قد أبعدته)

أيزينرينج : أرجو ألا تؤاخذينا يا سيدتى ! هكذا الإنسان عندما يخرج من السجن ، هكذا ، بعد أن يظل شهوراً بعيداً عن الحضارة .

(يتناول المفرش ويريه لشميتس)

أتعرف ما هذا ؟

(يتجه إلى بابيتّه)

إنه لم يرَ فى حياته شيئا كهذا .

(يعود إلى شميتس مرة أخرى)

هذا قماش دمشقى .

شميتس : فهمنا ؟ وماذا أعمل به ؟

(أيزينرينج يلف مفرش المائدة حول رقبة شميتس)

أيزينرينج : هكذا يستعملون مفرش السفرة .

(بيدرمن يجتهد فى أن يجد هذه الحركة مضحكة ويضحك)

بابيتّه : وأين قواعد السكاكين التى لدينا يا أنّه ، قواعد السكاكين ؟

أنّه : يا سيد بيدرمن ..

بيدرمن : هاتيها .

أنّــــه : ولكنك قلت لى من قبل : ابعديها .

بيــدرمن : هاتيها قلت لك ، أين هى ؟ أعوذ بالله ! يا ساتر !

أنّــــه : فى جيب بنطلونك الأيسر .

(بيدرمن يدسّ يده فى جيبه فيجدها)

أيزينرينج : بدون انفعال .

أنّــــه : وما ذنبى أنا ؟ !

أيزينرينج : بدون انفعال يا آنسه .

(أنّه تنفجر باكية ، تولول ، تلتفت إلى الخلف وتجرى)

أيزينرينج : هذا من تأثير الانقباض الذى تحدثه رياح الخماسين .

(فترة)

بيــدرمن : هيا نشرب يا أصدقائى ، هيا بنا نشرب !

(يشربون ويصمتون)

أيزينرينج : كنــت آكــل الأوز كــل يوم ، صحيح ، عندما كنت أعمل « جرسونا » . عندما كنت أجرى كالسهم خلال الردهات الطويلة حاملاً الصحن على كفى . ولكن أين كان الواحد منا ينظف أصابعه يا سيدتى ؟ هذا هو السؤال . كان ينظفها فى شعره . أين ينظفها إن لم يمسحها فى شعره؟ أما الآخرون فلديهم آنية من الكريستال يترقرق فيها الماء يغمسون فيها أصابعهم . هذا ما لن أنساه أبداً .

(يغمس أصابعه فى آنية غسيل الأصابع)

هل تعرف الجرح النفسى ؟

بيــدرمن : لا .

أيزينرينج : شرحوا لى معناه فى السجن ، هناك شرحوا لى معنى كل شىء.

(يجفف أصابعه)

بابيـتّـه : ولماذا دخلت السجن يا سيد أيزينرينج ؟

بيـدرمن : بابيتّه !

أيزينرينج : لماذا دخلت السجن ؟

بيـدرمن : لا يليق يا بابيتّه ، هذا سؤال لا يصح توجيهه لأحد .

أيزينرينج : أنا نفسي أتساءل .. كنت كما قلت لك ، أعمل « جرسوناً » .. « جرسوناً » من الدرجة الأولى ، على قدرى ، وفجأة خلطوا بين مشعل حريق كبير وبينى .

بيـدرمن : هكذا .

أيزينرينج : وقبضوا علىَّ وأنا فى بيتى .

بيـدرمن : هكذا .

أيزينرينج : كنت مندهشاً لدرجة أننى وافقت على التهمة .

بيـدرمن : هكذا .

أيزينرينج : وكنت سعيد الحظ يا سيدتى ، فقد وقعتُ فى أيدى سبعةٍ من أظرف رجال الشرطة ، كانوا حقيقة غاية فى الظرف . عندما قلت لهم : والآن لابد أن أذهب إلى عملى . ليس لدى وقت ، قالوا لى : المؤسسة التى تعمل بها أكلتها النيران .

بيـدرمن : حرقت ؟

أيزينرينج : بين عشية وضحاها على ما يبدو .

بابيـتّـه : حرقت ؟

أيزينرينج : فقلت لهم : جميل . مادامت النيران قد أتت عليها فلدىّ وقت كانت مؤسستنا كلها قد استحالت إلى كومة من الخشب يتصاعد منها الدخان ، رأيتها هكذا عندما مرت سيارة السجن بجوارها ، ونظرت إليها من خلال النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية .

(يشرب النبيذ على طريقة العارفين)

بيـدرمن : وماذا حدث بعد ذلك ؟

(أيزينرينج يحملق فى الورقة الملصقة على زجاجة النبيذ)

أيزينرينج : كـان عندنا هذا الصنف أيضـاً : معـصـور سنة تسعـة وأربعين ، كاف دى ليشانون ، سألتنى : ماذا حدث بعد ذلك ؟ يويو لابد أن يحكيه لك ، لقد كنت جالساً فى القاعة الخارجية أعبث بالكلبشات ، وإذا بشىء عجيب يحدث ، إذا بهم يدخلون علينا بشخص ، أتعرف من هو ؟
إنه هذا الرجل .

(شميتس يتهلل بِشْراً)

فى صحتك يا يويو .

شمـيتس : فى صحتك يا ڤيللى .

(يشربان)

بيـدرمن : ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

شمـيتس : هل أنت مشعل الحريق؟ سألوه هذا السؤال وقدموا إليه السجائر فقـال : لا مؤاخذة ليس لدى عيـدان ثقـاب أشعل بهـا السجائر على الرغم من أنكم يا حضـرة الضـابط تزعمـون أننى أشعلت الحريق .

(يضحكان ضحكات عالية ويربت الواحد منهما على فخذ الآخر)

بيـدرمن : هكذا !

(دخلت أنّه وقد ارتدت الطاقية والمريلة مرة أخرى ، تقدم إلى بيدرمن بطاقة يتطلع إليها)

أنّـــه : إنه يقول إن الموضوع عاجل ولا يحتمل التأخير .

بيـدرمن : حتى عندما يكون عندى ضيوف !

(شميتس وأيزينرينج يتقارعان الكؤوس)

شميتس : في صحتك يا ڤيللى .

أيزينرينج : في صحتك يا يويو .

(يشربان ، بيدرمن يتأمل البطاقة)

بابيتّه : ممن هذا يا جوتليب ؟

بيدرمن : من الدكتور نفسه ، دكتور الفلسفة .

(أنّه تعمل شيئاً عند الدولاب)

أيزينرينج : وما هذا الشيء الفضى هناك يا آنسة ؟

أنّه : تقصد الشمعدانين ؟

أيزينرينج : ولماذا تخفوهما ؟

بيدرمن : هاتيهما .

أنّه : ولكنك قلت يا سيد بيدرمن بنفسك ..

بيدرمن : هاتيهما قلت لك .

(أنّه تضع الشمعدانين على المائدة)

أيزينرينج : ما رأيك يا يويو ؟ لديهم شمعدانات ويخفونها .
لم يعد ينقصك شيء ؟ فضة وفوقها شمع .. هل لديك عيدان ثقاب ؟

(يدس يده فى جيب بنطلونه باحثاً)

شميتس : أنا ؟ ليس معى .

(يدس يده فى جيب بنطلونه)

أيزينرينج : ليس لدينا للأسف عيدان ثقاب يا سيد بيدرمن ، صحيح .

بيدرمن : أنا عندى .

أيزينوينج : هاتها .

بيدرمن : أنا سأشعلهما بنفسى ، لا تتعب نفسك . أنا سأشعلهما .

(يشعل الشموع)

بابيتّه : ماذا يريد ذلك السيد بالضبط ؟

أنّه : أنا لا أفهم كلامه يا سيدتى ، إنه يقول إنه لا يستطيع الاستمرار فى السكوت ويقول إنه سينتظر فى بير السلم .

بابيتّه : على انفراد ؟ هو قال لك إنه يريد أن تكون المحادثة على انفراد ؟

أنّه : نعم، وهو يكرر دائماً أنه يريد أن يكشف الغطاء عن أشياء مهمة

بابيتّه : عن أية أشياء ؟

أنّه : لم أفهم كلامه يا سيدتى على الرغم من أنه كرره مائة مرة ، إنه يقول إنه يريد أن يتبرأ من ...

(شموع كثيرة تضىء)

أيزينرينج : إنها تعطى على الفور انطباعًا آخر مختلفًا كل الاختلاف . ألا ترين أنتِ أيضاً هذا الرأى يا سيدتى ؟ هذه الشموع والضوء الذى تنشره بالإنجليزية يسمونه « كاندل لايت » .

بابيتّه : آهٍ بالضبط . الجو ..

أيزينرينج : وأنا أحب الجو ..

بيدرمن : يا سلام يا سيد أيزينرينج ، شىء يسعدنى ..

(كل الشموع تضىء)

أيزينرينج : لا يا شميتس ، لا تمضغ بصوت عالٍ .

(بابيتّه تنتحى بأيزينرينج جانباً)

بابيتّه : دعه على راحته .

أيزينرينج : إنه لا يحسن السلوك يا سيدتى ، لا مؤاخذة . شىء فظيع ، شىء أليم بالنسبة إلىّ .. ولكن من أين له بالسلوك اللائق ؟ ! من كوخ الحطّابين إلى ملجأ الأيتام .

بابيتّه : أعرف ذلك .

أيزينرينج : ومن ملجأ الأيتام إلى السيرك .

بابيتّه : أعرف ذلك .

أيزينرينج : ومن السيرك إلى المسرح .

بابيتّه : لا ، لا أعرف حكاية المسرح هذه ، ولم أسمع بها .

أيزينرينج : دنيا يا سيدتى ! أيام ! أقدار !

(بابيته تتجه إلى شميتس)

بابيتّه : أنتَ أيضاً اشتغلت فى المسرح ؟

(شميتس ، يعضعض ، فى ورك أوزة ويهز رأسه)

أين ؟

شميتس : فى الظل .

أيزينرينج : على الرغم من موهبته ، يويو فى دور العفريت ، الشبح ، هل رأيته فى هذا الدور ؟ هيّا ..

شميتس : ليس الآن .

أيزينرينج : لمَ لا ؟

شميتس : اشتغلت فى المسرح شهراً فقط يا سيدتى ثم التهمه الحريق .

بابيتّه : الحريق !

أيزينرينج : لا داعى للخجل !

بيدرمن : التهمه الحريق ؟

أيزينرينج : لا داعى للخجل !

(يحل مفرش السفرة الذى كان شميتس يتخذه على صدره كالفوطة ويلقى به فوق رأس شميتس)

هيّا !

(شميتس يلتف بالمفرش الأبيض ، ينهض)

أنتـــــه : هه . ما رأيكم . أليس منظره كالعفريت ؟

أيزينرينج : أنا خائفة .

يا بنت !

(يطوق أنته بذراعيه ، وهى تخفى وجهها بيديها)

شـميتس : هل يمكننا ؟

أيزينرينج : هذه لغة مسرحية يا سيدتى ، تعلمها أثناء التجارب فى أسبوع واحد فقط ، قبل أن يأتى الحريق على المسرح ، شىء عجيب .

بابيـتّـه : لا تتكلم دائماً عن الحريق والحرائق .

شـميتس : هل يمكننا ؟

أيزينرينج : استعداد ... ابتدىء .

(الجميع يجلسون ، أيزينرينج يضم أنته إلى صدره)

شـميتس : **كل إنسان ! كل إنسان !**

بابيـتّـه : جوتليب ؟

بيـدرمن : اسكتى ، هس .

بابيـتّـه : رأيناها فى زالتسبورج .

شـميتس : **بيدرمن ! بيدرمن !**

أيـزينريـنج رائع ، فى رأيى أنه يمثل الدور تمثيلاً رائعاً .

شـميتس : **بيدرمن ! بيدرمن !**

أيزينرينج : عليك الآن أن تسأله من أنت ؟

بيـدرمن : أنا ؟

أيزينرينج : نعم ، وإلا فلن يستطيع الاستمرار فى الكلام إلى نهايته .

شـميتس : **كل إنسان ، بيدرمن !**

بيــدرمن : وأنا الآن أقول له : من أنا ؟

بـابيــتّــه : لا. أنت تسأله هو عمن يكون .

بيــدرمن : آه ، هكذا .

شـمـيـتس : **ألا تسمعوننى ؟**

أيزينرينج : لا يا يويو ، من البداية مرة ثانية .

(يغيرون الوضع)

شـمـيـتس : **كل إنسان ! بيدرمن !**

بـابيــتّــه : هل أنت – على سبيل المثال – هل أنت الموت ؟

بيــدرمن : كلام فارغ !

بـابيــتّــه : فماذا يكون غير ذلك ؟

بيــدرمن : أنت تسالين : من أنت ؟ ومن الجائز أن يكون شبح هاملت ، أو الشبح المتحجر ، أنت تعرفينه . أو هذا الــ الــ ، نسيت اسمه : مساعد مكبث .

شـمـيـتس : **من ينادينى ؟**

أيزينرينج : استمر .

شـمـيـتس : **بيدرمن جوتليب !**

بـابيــتّــه : اسأله أنت ، إنه يوجه الكلام إليك .

شـمـيـتس : **ألا تسمعوننى ؟**

بيــدرمن : من أنت ؟

شـمـيـتس : **أنا روح كنيشتلينج !**

(بابيتّه تنتفض وتصرخ)

أيزينرينج : قف !

(ينزع مفرش السفرة الأبيض عن شميتس)

أنت غبى . ما كان يليق بك أن تفعل هذا . كيف تقول كنيشتلينج ، هذا لا يليق فلم يدفن كنيشتلينج إلا اليوم .

شميتس : لهذا السبب اخترته .

(بابيثه توارى وجهها بيديها)

أيزينرينج : لا ياسيدتى ، ليس هذا روح كنيشتلينج .

(يهز رأسه امتعاضاً مما فعله شميتس)

كيف يمكن أن تتجرد من الذوق إلى هذا الحد ؟

شميتس : لم يخطر ببالى سواه .

أيزينرينج : كنيشتلينج ، لم نجد غير كنيشتلينج ، مساعد السيد بيدرمن القديم، المساعد المخلص الذى دفن اليوم. تصور .. إنه لا يزال جثة متماسكة ، شاحبة بيضاء مثل مفرش السفرة ، ناصعة لامعة مثل القماش الدمشقى ، جثة جامدة متصلبة باردة يمكن وضعها قائمة دون أن تنثنى .

(يمسك بابيثه من كتفها)

صدقينى يا سيدتى ، أقسم لك بشرفى أنه ليس روح كنيشتلينج .

(شميتس يجفف عرقه)

شميتس : متأسف !

بيدرمن : هيا بنا نجلس .

أنّـه : هل انتهى الآن كل شىء ؟

(يجلسون ، فترة من الحيرة)

بيدرمن : ما رأيكم الآن فى سيجار صغير أيها السادة ؟

(يقدم علبة سيجار)

أيزينرينج : غبى ! هأنتذا ترى كيف يرتعش السيد بيدرمن .. شكراً يا سيد بيدرمن شكراً .. أم لعلك رأيت أنك بذلك تعرض شيئا مضحكاً . وأنت تعرف تمام المعرفة أن كنيشتلينج مات منتحراً بالغاز بعد أن فعل صاحبنا جوتليب كل ما استطاع أن يفعله مع كنيشتلينج هذا . لقد أعطاه عملاً طوال أربع عشرة سنة . كنيشتلينج ، وهذا هو الجزاء .

بيدرمن : لنكف عن الحديث فى هذا الموضوع .

أيزينرينج : هذا هو جزاؤك على الأوزة !

(يعدّان سيجارتين)

شميتس : هل أغنّى شيئاً ؟

أيزينرينج : ماذا تغنى ؟

شميتس : « سرقت الأوزة يا ثعلب » .

(يرفع صوته بالغناء)

سرقت الأوزة يا ثعلب .
أَعِدْها إلينا ، أَعِدْها .

أيزينرينج : دَع هذه الأغنية .

شميتس : أعدها إلينا ، أعدها ،
وإلا فالصياد وراءك
بنار سلاح قذر .

أيزينرينج : إنه سكران !

شميتس : بنار سلاح قذر .

أيزينرينج : لا تسمعيه يا سيدتى .

شميتس : أعدها إلينا أعدها

وإلا فالصياد وراءك

بنار سلاح قذر ...... »

بيدرمن : ظريفة جداً عبارة « سلاح قذر » هذه .

الرجال جميعًا : « سرقت الأوزة يا ثعلب » .

(يغنون بأصواتٍ مختلفة الطبقات ، تارة بطبقة عالية ، وتارة بطبقة منخفضة جدا ، وينوعون الغناء ما شاء لهم التنويع ، ضحكات . ائتلاف صاخب بين صحاب لا كلفة بينهم . سكون . بيدرمن يعاود الغناء الصاخب . ويتزعم المرح حتى يبلغ المرح مداه وينتهى)

بيدرمن : والآن فى صحتكم !

(يرفعون الكؤوس ، تأتى إلى الأسماع أصوات صفارات الحريق من بعيد)

ما هذا الذى سمعته ؟

أيزينرينج : صفارات الحريق .

بيدرمن : بدون مزاح .

بابيتّه : مشعلو الحرائق ، مشعلو الحرائق .

بيدرمن : لا تصرخى هكذا .

(بابيتّه تفتح النافذة بعنف ، تقترب صفارات الحريق مدوية على نحو مفزع ، ثم تبتعد مسرعة)

ليس الحريق لدينا . . الحمد الله .

بابيتّه : أين يمكن أن يكون الحريق يا ترى ؟

أيزينرينج : حيث تأتى رياح الخماسين .

بيــدرمن : الحمد الله ليس الحريق عندنا ..

أيزينرينج : هكذا نفعل فى غالبية الأحوال : نَجرُّ المطافىء بعيداً إلى حى من الأحياء الرخيصة خارج المدينة ، فإذا اشتعلت الحرائق بالفعل وجدت طريق العودة موصداً .

بيــدرمن : لا يا حضرات السادة ، بدون مزاح .

شـمـيتس : هذا ما نفعله فعلاً بدون مزاح .

بيــدرمن : كفى هذا الكلام الفارغ ، أرجوك . ينبغى أن يكون كل شىء فى حدود الاعتدال . وأنت ترى أن زوجتى قد شحب لونها حتى أصبح وجهها بلون الطباشير .

بابيــتّــه: وأنتَ ؟

بيــدرمن : أعنى بصفة عامة . صفارات المطافىء هى صفارات المطافىء . ليس فيها ما يضحك منه الإنسان ، يا حضرات السادة ، الموضوع لابد أن ينتهى إلى نهاية ، فى موضع ما ، فى موضع ما شب حريق ، وإلا لما خرجت سيارات الإطفاء .

(أيزينرينج ينظر إلى ساعته)

أيزينرينج : لابد أن ننصرف الآن .

بيــدرمن : الآن ؟

أيزينرينج : للأسف .

شـمـيتس : « لا الصياد ح يطخك .... »

(يتناهى إلى السمع مرة أخرى صوت صفارات المطافىء)

بيــدرمن : أعدى القهوة يا بابيتّه .

(بابيتّه تخرج)

وأنت يا أنّه لماذا تقفين هكذا وتحملقين ؟

(أنّه تخرج)

كلام بيننا يا حضرات السادة : كفاية يعنى كفاية ، زوجتى مريضة القلب .
فلنكف عن المزاح فى موضوع الحرائق .

شميتس : إننا لا نمزح يا سيد بيدرمن .

أيزينرينج : إننا مشعلو حرائق .

بيدرمن : يا حضرات السادة نريد الآن كلاماً جاداً غاية الجد .

شميتس : كلاماً جاداً غاية الجد .

أيزينرينج : كلاما جاداً غاية الجد .

شميتس : لماذا لا تصدقنا ؟

أيزينرينج : إن بيتك يا سيد بيدرمن يغرى بالحريق كل الإغراء .. هذا شيء لابد أن تقرنا عليه : هناك خمس بؤرات للنار حول خمسة خزانات للغاز . وإن كانت للأسف تحت الحراسة ، ثم ريح من رياح الخماسين الشديدة .

بيدرمن : ليس هذا صحيحاً .

شميتس : يا سيد بيدرمن . إذا كنت تعتبرنا من مشعلى الحرائق فلماذا لا نتكلم فى الموضوع بصراحة ؟

(بيدرمن ينظر نظرة إنسان منهار تماماً)

بيدرمن : أنا لا أعتبركما من مشعلى الحرائق يا حضرات السادة ، ليس هذا صحيحاً ، هذا ظلم أنتما تظلمانى ، أنا لا أعتبرنى كما من مشعلى الحرائق .

أيزينرينج : قل الحقيقة التى ترضى ربنا .

بيدرمن : لا ! لا ! لا ! لا !

شميتس : فماذا تعتبرنا إذن ؟

بيــدرمـن : من أصدقائى ..

(يربتان على كتفه ويتركانه واقفًا)

إلى أين تذهبان الآن ؟

أيزينرينج : لقد حان الوقت .

بيــدرمـن : أقسم لكما يا حضرات السادة ، أقسم بالله .

أيزينرينج : بالله ؟

بيــدرمـن : نعم .

(يرفع أصابعه ببطء ليقسم)

شـمـيـتس : إنه لا يؤمن بالرب ، وقـيـللى هذا لا يؤمـــن بالـــرب مـثلك تمامًا يا سـيـد بيـدرمن ، فـمـا جـدوى الأيْـمـان مـهـمـا كـانت مغلظة ؟!

(يستمران فى السير نحو الباب)

بيــدرمـن : فماذا أفعل حتى تصدقانى ؟

(يقف فى طريقهما)

أيزينرينج : أعطنا بعض عيدان الثقاب الصغيرة .

بيــدرمـن : ماذا – ماذا أفعل ؟

أيزينرينج : ليس معنا عيدان ثقاب .

بيــدرمـن : وأنا .

أيزينرينج : نعم . إذا لم تكن تعتبرنا من مشعلى الحرائق .

بيــدرمـن : عيدان ثقاب صغيرة .

شـمـيـتس : كعلامة على الثقة ، على حّد قوله .

(بيدرمن يدس يده فى جيبه)

أيزينرينج : إنه يتردد . هل رأيت كيف يتردد ؟

بيـــدرمن : هس ! ولكن ليس أمام زوجتى .

(بابيتّه تعود)

بابيـــتّـــه : ستأتى القهوة حالاً .

(فترة)

وأنتما مصران على الذهاب ؟

بيـــدرمن : هكذا – أيها الأصدقاء – إن ذلك ليحزّ فى قلبنا ، ولكن المهم أن تكونا قد أحسستما .. أنا لا أريد أن أطيل فى الكلام أيها الأصدقاء ، بل .. ولكن لماذا لا نرفع الكلفة بيننا ؟

بابيـــتّـــه : هه .

بيـــدرمن : أنا من رأيى أن نشرب نخب رباط أخوة يجمعنا .

(يتناول زجاجة وبريمة)

أيزينرينج : قولى لزوجك الحبيب ألا يفتح لهذا الغرض زجاجة أخرى فلن تفيد شيئاً .

(بيدرمن يفض السدادة)

بيـــدرمن : ليس هناك شيء أستكثره عليكم أيها الأصدقاء ، ليس لدىّ ما أستكثره عليكم ، وإذا كانت لديكم أيه رغبة أخرى . أية رغبة ..

(يملأ الكؤوس بسرعة ويقدم إلى كلٍ كأساً)

أىْ صديقاى ، هيا نقرع الكؤوس .

(يتقارعون الكؤوس)

جوتليب .

(يقبّل شميتس على خدّه)

شـمـيـتس : يويو .

بيـــدرمن : جوتليب .

(يقبّل أيزينرينج على خدّه)

أيزينرينج : ڤيللى.

(يقفون ويشربون)

ولكننا لابد أن نذهب رغم كل هذا يا جوتليب .

شميتس : للأسف .

أيزينرينج : سيدتى .

(يتناهى إلى السمع صوت صفارات الحريق)

بابيتّه : كانت أمسية رائعة .

(أجراس الخطر تدق)

أيزينرينج : بقى شىء واحد يا جوتليب .

بيدرمن : وما هو ؟

أيزينرينج : أنت تعرفه ؟

بيدرمن : إذا كانت لديك أية رغبة فأنا .

أيزينرينج : عيدان ثقاب صغيرة .

(أنّه دخلت بالقهوة)

أنّه : القهوة .

بابيتّه : ما بالك مضطربة مذهولة إلى هذا الحد ؟

أنّه : هناك - السماء - يا سيدتى - من شباك المطبخ - السماء مشتعلة .

(عندما ينحنى شميتس وأيزينرينج ويذهبان تكون الحمرة الشديدة قد أطبقت ، بيدرمن يقف شاحباً مذهولاً)

بيدرمن : الحمد لله أن الحريق ليس عندنا .. الحمد لله أنه ليس عندنا .. الحمد لله ..

(يدخل الدكتور الجامعى)

ماذا تريد ؟

دكتور الفلسفة: لا أستطيع أن أستمر فى الصمت إلى أكثر من هذا الحد .

(يستخرج من جيب السترة الداخلى ورقة ويطالعها)

« الموقع أدناه ، وقد هزت أعماقه الأحداث التى تجرى حالياً ، والتى لا يمكن، من وجهة نظره هو أيضًا ، إلا أن توصف بالإجرام ، يقدم هذا البيان إلى الرأى العام : »

(صفارات كثيرة تعوى ، يقرأ نصًا مسهبًا لا يفهم أحد منه شيئًا . أصوات نباح الكلاب ، أجراس الخطر ، الصراخ ، صفارات الحريق البعيدة ، طقطقة النيران القريبة ، ثم يتقدم إلى بيدرمن ويسلمه الورقة)

أنا أعلن تبرئى .

بيدرمن : ثم ماذا ؟

دكتور الفلسفة: لقد قلت ما ينبغى علىّ أن أقوله .

(يخلع نظارته ويطويها)

افهمنى يا سيد بيدرمن ، لقد كنت أريد إصلاح الدنيا ، وأنا رجل جاد صادق ، كنت أعرف كل ما كانوا يدبّرونه فى السندرة . إلا شيئاً واحداً لم أكن أعرفه : وهو أنهم كانوا يَصْدُرُون عن مجرد شهوة خطيرة لا تطفىء جذوتها إلا النيران .

بيدرمن : يا سيادة الدكتور .

(الدكتور الجامعى يبتعد)

يا سيادة الدكتور ، وماذ أعمل بهذه ؟

(الدكتور الجامعى يصعد فوق حاجز المسرح وينزل إلى الصالة حيث يجلس)

بـابيــتّــه : يا جوتليب .

بيــدرمـن : هو .. راح .

بـابيــتّــه : مـــاذا أعطيت الرجلين ؟ لقـد رأيتك تعطيـهـمـا شيئًا . عيـدان ثقاب ؟

بيــدرمـن : ولم لا ؟

بـابيــتّــه : عيدان ثقاب ؟

بيــدرمـن : لو أنهـمـا كانا بالفعل من مشعلى الحرائق ، فهل تظنين أنهـمـا كانا بالفعل لا يحملان عيدان ثقاب ؟ يا بابيتّه ، يا حبيبتى ، يا بابيتّه يا حبيبتى .

(الساعة الكبيرة تدق . سكون . الضوء يصطبغ بالحمرة ، وبينما يحيط الظلام تدريجيا بالمسرح تتناهى إلى الأسـمـاع أصواتُ أجراس الخطر ، نباح الكلاب ، صفارات الحريق ، فرقعة كتل خشبية منهارة ، آلات تنبيه السيارات ، طقطقة النيران ، صرخات حتى يتقدم الكورس المشهد .)

الكـورس : هناك أشياء كثيرة بغير معنى .
ولكن ليس هناك شيء تجرد من المعنى قدر هذه القصة :
التى اضطرمت وتأججت
فقتلت الكثيرين ، وإن لم تقتل الجميع ،
ثم لم تغيّر شيئاً .

(فرقعة أولى)

رئيس الكورس: كان هذا خزان غاز

(فرقعة ثانية)

الكـورس : وما تنبأ به كل إنسان
قبل النهاية بوقت طويل
جرى فى النهاية وتحقق :
هذا السخف
الذى لم يعد من سبيل إلى إطفائه
والذى يسمونه القضاء والقدر .

(فرقعة ثالثة)

رئيس الكورس: خزان غاز آخر

(تتوالى فرقعات فظيعة)

الكـورس : آه لنا ! آه لنا ! آه لنا !

(يضاء النور فى قاعة المتفرجين)

رقم الإيداع ١٩٩٦/٨٧٠١
الترقيم الدولى (I.S.B.N-977-235-627-9)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٧٦٨١ - ١٩٩٥ - ١٠١٢

300757 59039

يعالج الأديب السويسرى ماكس فريش فى هذه المسرحية من منظور أخلاقى وسياسى طائفة من مشكلات المجتمع الحديث المحورية . فقد أتيح لهذا المجتمع من التقدم الفكرى والتقنى والعلمى والصناعى والتجارى الشىء الكثير ، ولكنه لم يزل يضم بين ظهرانيه نمط الإنسان الذى تخلف أخلاقيا وفكريًا عن هذا التقدم بمعناه الشامل ، وظل على أنانيته وضيق فكره يستغل أخاه الإنسان ، لا يهمه إلا أن يحقق الأرقام ، أعلى الأرقام ، فى التوزيع والنجاح والثروة والقوة ، ولكن غفلته عن الأبعاد الاجتماعية والإنسانية وعن القيم تهدد كل شىء بالفناء ، وتهدده هو أيضًا بالفناء ، بل تستخدمه آلة تنسف ذاته . وهذا هو بيدرمن فى وسط الكارثة يتعامى عن الحقيقة ويسترسل فى الزيف والتزييف إلى النهاية ، إلى الهاوية ، وإذا المسرحية تنقلب من مأساة إلى ملهاة ، ومن ملهاة إلى مأساة .